(لا إله إلا الله محمد رسول الله)

مفتاح الجنة

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾

تأليف

العلامة الجليل الداعي إلى الحق والرشاد

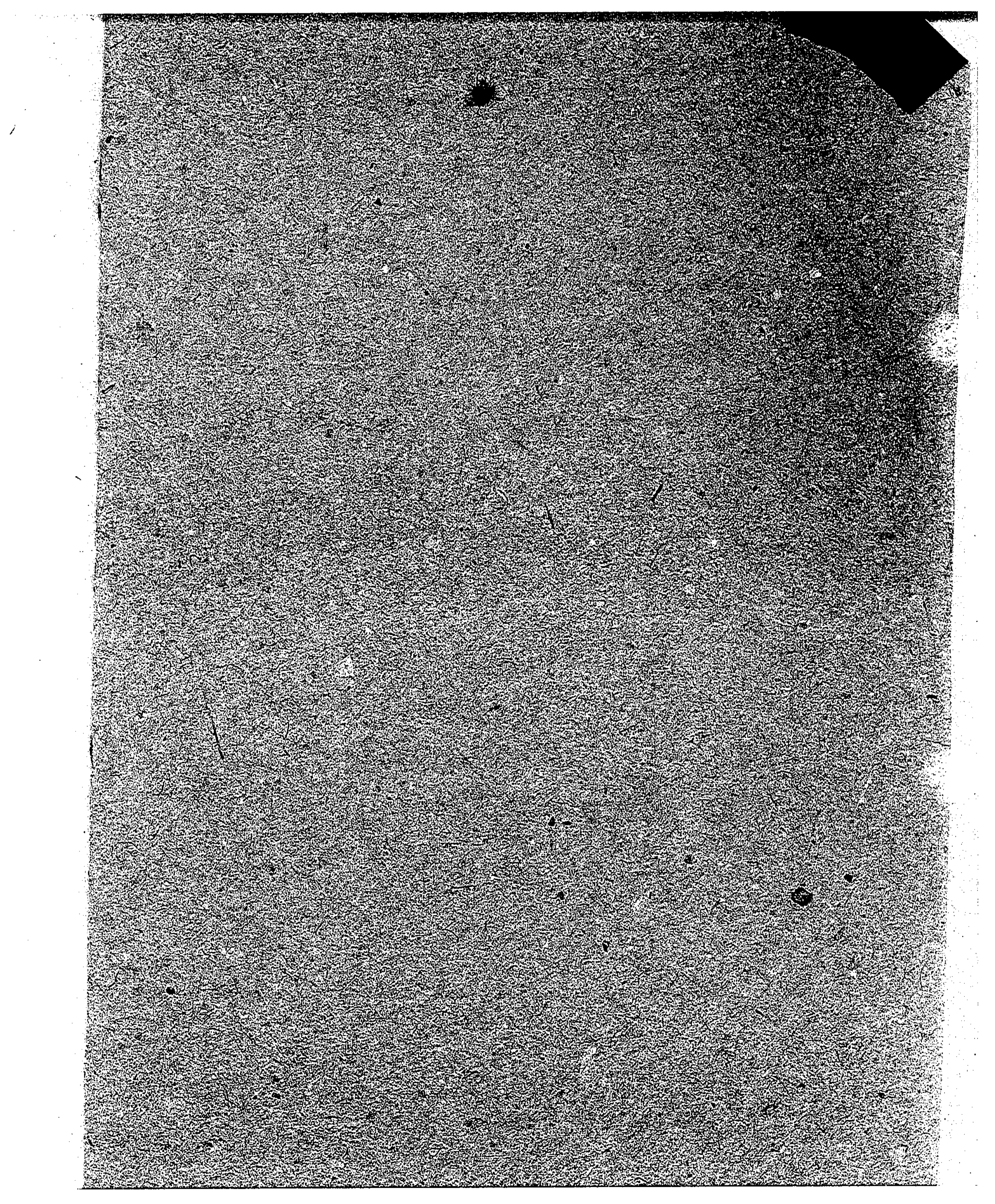
السيد أحمد مشهور بن طه الحداد

العلوي الحسيني الحضرمي

عفي عنه

الطبعة الثانية بالقاهرة

سنة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م



(لا إله إلا الله محمد رسول الله)

مفتاح الجنة

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾

تأليف

العلامة الجليل الداعى إلى الحق والرشاد

السيد أحمد مشهور بن طه الحداد

العلوى الحسينى الحضرمى

عفى عنه

الطبعة الثانية بالقاهرة

سنة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م

مطبعة المدنى

٦٨ شارع العباسية - عمارة النجمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله الأكرمين وأصحابه البررة وجميع التابعين (وبعد) فهذا « مفتاح الجنة » يقدمه الأخ العلامة الجليل الداعي إلى الله الحبيب السيد (أحمد مشهور الحداد) إلى إخوانه المسلمين ، رجاء أن يفتح الله به أبواب جنة النعيم ، لمن يتقبله بقلب سليم ، وينهض بالدعوة إلى الله على نهجه القويم .

* * *

ألمَّ صديقنا السيد الفاضل في هذه الرسالة الوجيزة بمباحث هامة تتعلق بكلمتي الشهادة اللتين بهما النجاة والسعادة في الآخرة والأولى وهي من أهم مباحث أصول الدين ، التي لاغنى عن معرفتها لمن يبغي أن يقوم مقام صدق في الدعوة إلى الحق وإلى سبيل المؤمنين ، مع ما اقتضته المناسبة من آراء وبحوث ، وتنبيه وإرشاد ، وتحذير ، ثمرة علم ودراسة وتجارب ، فأوضح وأسهب ، وأشار وألمع ، في بيان صادق وأسلوب رصين . أمتع الله به ، ونفع بآثاره ، وأثابه على ما أسدى من الخير للاسلام والمسلمين ، نعيما خالداً في جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وإن الله لمع المحسنين .

١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٨٩

كتبه

حسنين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية سابقاً

وعضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة السيد المؤلف

بقلم نجله محمد أحمد مشهور الحداد

هو السيد العلامة الوالد أحمد مشهور بن طه بن علي بن عبد الله الحداد العلوي الحسيني الحضرمي .

ولد بمدينة (قيدون) بوادي دوعن حضرموت عام ١٣٢٩ هـ وبها نشأ وترعرع في بيت من بيوت العلم والصلاح مفتتحا مبادئه العلمية تهذيبا وتثقيفا على كثير ممن كانوا أمثلة تحتذى في التربية والتأديب ، وقدوة صالحة في التوجيه والإرشاد .

فتهذَّب طفلا وتثقَّف يافعا بطارق للقوم مشهورة ، وسنن مأثورة . وآداب مرعية . ومواجيد تسري بالفيض والسراية ، ومشاهد توصل إلى أعلى غاية .

وكانت أمه الصالحة السيدة صفية بنت طاهر بن عمر الحداد المدرسة الأولى له رعاية ودراية ، فقد كانت من الأمهات القلائل اللاتي ضنَّ الزمن بمثلهن علماً وحصانة وفضلا ، وكانت من حفاظ القرآن الكريم فغذته بلبانها وهي تتلوه ، ورعته بتوجيهها وهي تدارسه آياته ، وكانت أول من أخذ بسمعه لتروي له في أسمارها قصص الذين أدركتهم من أئمة العلم وأساطين الصلاح وكأنها ولسان حالها ينشد ما قاله جدها الحداد :

أولئك قوم قد هدى الله فاقتده ... بهم واستقم والزم ولاتتلفت

ولا تعدُ عنهم إنهم مطلع الهدى ... وهم بلَّغوا علم الكتاب وسنة

أما شيوخه بحضرموت : فمن الذين قيل فيهم :

أولئك الناس إن قلوا وإن كثروا ... ومن سواهم فلغوٌ غير معدود

وفي طليعتهم السيد العلامة الداعي إلى الله عبدالله بن طاهر الحداد وأخوه الجهبذ الحبر علوي بن طاهر الحداد مفتي جهور « بمليسيا » « سابقاً » وعليهما كان جل انتفاعه وتلقيه في معهد [الرباط] الذي أسساه ببلدة (قيدون) سنين عديدة : ومنهم عمدة السلف السيد صالح بن عبد الله الحداد وقدوة الخلف السيد أحمد بن محسن الهدار .

كما سمع أيضاً من الإمام الكبير السيد أحمد بن حسن العطاس .

هجرته من الوطن

هاجر في عنفوان شبابه إلى (جاوه) للاستزادة والتلقي عن شيوخ أجلاء حطّوا بتلك الديار ! ! وللاتجار أيضاً ، ولم يدم بها طويلا حتى عاد أدراجه ليخوض المعمعان العلمي الصاخب الذي كان يرقبه وهو مهيؤ له فتلاقت مواهبه المصقولة بالنشاط المختلف الذي كان يدفعه إلى أندية العلم للطلب حينا وللمناظرة والإلقاء آخر . فبرز على أقرانه بما وهب من حب العلم والإطلاع وهبَّ يأخذ من العلوم بأوفر نصيب ، فدرس التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف وعلوم العربية ، والتاريخ وحفظ الكثير من متون هذه العلوم ، وظهر أخيراً كخطيب وشاعر وناثر .

ومع ماتوفر فيه من النضوج العلمي والعبقرية المبكرة كان مستديم التلقي عن شيوخه ليلا ونهاراً . فعرفه الوادي عالماً إسلامياً أديباً . دائباً على الإفادة والاستفادة ثم مكث ماطاب له المكث بموطنه (قيدون) ينهل من معين العلم ويستفيد من العلماء ذوي الفضل والصلاح حينا ويفيد حينا ـ حتى بارحها بعد تخطيه دور الشبيبة إلى إفريقيا الشرقية .

وفي إشرافنا على حياته العلمية والعملية في أفريقيا الشرقية تطالعنا السنين الطوال التي قضاها ثمة ولا يزال حتى الآن ـ بأروع أثر ديني ضخم ، إذ بينما نشاهد الزهد والقناعة في حياته التجارية التي كانت مزاولته إياها من باب صيانة العلم والحفاظ على شرفه فليس إلا ؟ إذا بنا نجده موزع الأوقات في الطاعات والعبادات وفي الإصلاح الاجتماعي وفي الدروس العامة الحاشدة التي يقوم بها في المساجد ويحضرها العديد من العلماء والمصلحين والطلاب ، ولا ننسى بيته الذي كان ندوة يرتادها الشباب من طلاب العلم فتتلمذ على يديه شباب كثير يعد الآن في إفريقيا الشرقية مثالا للخلق الكريم والأدب الإسلامي والتوجيه السليم الحكيم

ولقد هدى الله به خلقاً كثيراً ، فأسلم على يديه الجم الغفير من الوثنيين والمسيحيين ، وقد اشتهر صيته في آفاق تلك الأقطار ورشح أكثر من مرة للقضاء العالي فرفضه .

وهكذا عرفته إفريقيا الشرقية علماً من أعلام الهدى والإصلاح فكان محط الأنظار من كل أبناء الجاليات الإسلامية على اختلاف مشاربها كما كان لوجوده أثر كبير في رد القضايا الاجتماعية والدينية إلى سبيلها القويم . فقد كانت هناك عادات متفشية استحكمت في النفوس ودرج عليها الناس حتى حسبوها من الدين والدين منها براء كعدم توريث البنات واختلاط الرجال بالنساء في المناسبات الاجتماعية وانتهاك حرمة المساجد بما يحصل فيها مما ينافي الآداب الشرعية فهبَّ يرشد ويوجه بالحكمة والمواعظ الحسنة في كل مناسبة حتى انتفع به كثير وامّحى بدعوته كثير من آثار تلك الجهالات .

وكثيراً ما أفتى ، وكثيراً ما أصلح ، وكثيراً ما ناشد بالتقريب بين

الصفوف فالتفَّت حوله الجماعات ، وهو أشد الدعاة إلى الله قوة فى إفريقيا الشرقية لإحقاق الحق ، وأجسرهم صراحة فى تفنيد الباطل .

ولعل أشد ماأقامه أسداً هصوراً مقارعته بالحجة (النحلة القاديانية) الخبيثة فقدفرَّخت وعششت وتسربت إلى الكثير من الشباب المسلم والشيب فى يوغندا، فانبرى لها يصول ويجول ويباحث ويناظر فى المساجد والجامع — حتى أصابهم الخوف ، وخسر هنالك المبطلون .

ولقد عاصر السيد المترجَم أحداثاً وتيارات عقائدية عنيفة اجتاحت تلك الديار واستهدفت زعزعة العقيدة الإسلامية فى النفوس وطردَ الإسلام خارج الأسوار فهب ينافح ويزود عن العقيدة الإسلامية مستخدماً ما وهبه الله من ذخيرة علمية واعية وعقلية ناضجة لتثبيت هذه العقيدة ليتمكن المسلمون من الذود عن حياضها بعد أن أشربت نفوسهم بها بفضل الله أولا ثم ببسطه لحقائق الإسلام ومعارفه للنفر المسلم هناك ثانياً .

وله حفظه الله مجموعة من الفتاوى المتناثرة فى كل فن .

وشرح « لمنظومة الشيخ سعيد بن نبهان — الدرة اليتيمة فى النحو » .

والسبحة الثمينة « نظم مسائل السفينة » .

ورسالة فى معنى التشويش المنهى عنه فى الصلاة .

وله مجموعة ضخمة من الخطب المرتجلة التى كان يلقيها ولا زال فى مساجد إفريقيا الشرقية ، كخطب الجمعة وغيرها ، كما أن له مجموعة من القصائد الاجتماعية ومجموعة رسائل أخرى تعدُّ ولا ريب من غرر الرسائل الأدبية .

أما ذخائره فى القرآن الكريم فله فى معانيه مفاهيم إسلامية ، حبذا لو يوفِّر لها من وقته ما يمكنه من لمِّ شتاتها ليضيف إلى المكتبة القرآنية نوعاً من

المفاهيم الإسلامية السلفية . وأخرى فى السنة النبوية وما أثر عن السلف الصالح، وهو شديد النفرة من مغايرتهم حريص كل الحرص على اقتفاء آثارهم .

وأخيراً إلى القارىء الكريم . إلى أولئك الذين شاركوه فى الدعوة سرائها وضرائها وعاصروه فى المنشط والمكره . وإلى غيرهم ممن لم يعرفوه إلا لماماً إليهم جميعاً هذه الرسالة الأولى من نوعها فى أقطار إفريقيا الشرقية . رجاء أن تكون نواة فقه وإرشاد ومركز انطلاق فى سبيل الدعوة إلى الله فى تلك الأقطار المتعطشة للعقيدة الإسلامية ، وتذكرة مبصِّرة لرجال الدعوة أينما كانوا فسبيل الدعوة إلى الله فى هذه الظروف الحرجة محفوف بالمكاره بل مصدر مشقة لكل داع — فما بالك بداعية يتجرد لهذا ويتوفر عليه ويجعله مشغلته طوال ليله ونهاره .

إن هناك أقواماً مسلمين يعدون بعشرات الملايين فى حاجة إلى معرفة ماخفى من أمور دينهم ، ولن يتوفر للدعوة بين ظهرانيهم الجو السليم والسبيل الوادع ما لم يعرف الدعاة ما أوجب الله عليهم من واجب التبليغ فينطلقوا من زواياهم الضيقة إلى تلكم الأرجاء الواسعة حيث التضحية لله كل التضحية .

والله أسأل أن ينفع بهذه الرسالة ويحقق الخير المرجو منها وأن يجزل المثوبة لمؤلفها كِفاء مابذله من جهد ولكل من ساهم فى نشرها والنفع بها ويجعلنا جميعاً من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . وهو نعم المولى ونعم النصير » .

محمد أحمد مشهور الحداد العلوى

مكة المكرمة : فى ١٣٨٩/٢/٢ هـ

١٩٦٩/٥/٢٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، هادى الحائرين ، وواصل المنقطعين ، وبه نستعين على أمور الدنيا والدين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الصادق الأمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين (وبعد) فهذه رسالة وجيزة فى التنبيه على ما اشتملت عليه (**كلمة التوحيد والشهادة**) من علوم ودلت عليه من أعمال ورسوم ، أقدمها إلى قرائى المتعطشين إلى فهم حقائق الدين وخاصة قطان (يوغندا) المؤمنين ، آملا أن تحل من قلوبهم محل الرضا والقبول ، وتبل منهم صدى التلهف إلى ذلك المنهل المعسول ، وسميتها ، (**مفتاح الجنة**) رجاء أن تفتح لمن يعتقدها ويعمل بمضمونها أبواب جنة الرضوان والخلود (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وضمنتها على قصورى وتقصيرى ما يجب على المكلف معرفته من معانى التوحيد وثمراته ، وما ذخرت به كلمة الشهادة من علوم ومعارف ، وإشارات وأعمال مع استطراد فى بعض الأحيان ـ اقتضاه الحال ومست إليه الحاجة ـ إلى مباحث هامة تبصرة وتنويراً فإن أصبت المحز فمن فضل الله الجواد ، وإن زلت فالرجاء أن لا أحرم ثواب الاجتهاد ، وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى والله المسئول ، فى الإعانة والقبول .

١ ـ كلمة التوحيد ومعناها

(لا إله إلا الله) جملة جليلة فى معناها ، مختصرة فى مبناها ، عظيمة فى أثرها ، مشرّفة فى قدرها ، مشرقة فى نورها ، فريدة فى فضلها ، أربع كلمات ، بها قامت الملة ، وعليها وضعت القبلة ، وبها جاء كل كتاب أنزله الله على كل رسول من رسله الكرام ، وبها النجاة من النيران والفوز بالنعيم الخالد فى الجنان ، قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وبصحة الاعتقاد واليقين بمعناها والإذعان به يتحقق الإيمان .

وعلى أساس النطق بها صدقاً والعمل بمقتضاها حتماً يقوم الإسلام .

وبالجمع بين صحة الاعتقاد والاستسلام لحكمها والانقياد تشرق فى القلوب حقيقة الإحسان .

وكما تسمى كلمة التوحيد تسمى كلمة الشهادة ، وكلمة الإخلاص ، وكلمة الحق ، وكلمة الصدق ، وكلمة العهد ، وكلمة الإيمان ، وكلمة التقوى ، والكلمة الطيبة ، والكلمة الباقية ، وكلمة الله العليا ، وكلمة الشفاعة ، وثمن الجنة « ومفتاح الجنة » .

وهى أول ما يدخل به العبد فى دين الإسلام [1] وآخر ما يخرج به من الدنيا إلى الجنة والنعيم المقيم كما فى حديث « من كان آخر كلامه فى الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة » فهى أول واجب وآخر واجب .

---

(١) أى مع الشهادة بالرسالة المحمدية وهى من مقتضاها كما سيأتى .

فمن قالها موقنا بها ومات مصراً عليها سعد بدخول الجنة كما فى الحديث ، ومن استكبر عنها جحوداً أو إشراكا دخل النار ، وبئس القرار (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) .

ومعنى (لا آله إلا الله) لامعبود بحق إلا الله ، والله علم على الذات الأقدس الواجب الوجود المتصف بجميع صفات الكمال والجلال ، المنزه عن جميع سمات الحدوث وعن الشريك والنظير والمثال،وعما لايليق بمجده وعظمته من الصفات والأحوال فهو الإله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا إله إلا هو سبحانه لاشريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

٢ ـ العلم الباحث فى معناها وأدلتها

ويندرج كل هذا الذى ذكرناه إجمالا وماذكره أئمة علم التوحيد فى كتبهم تفصيلا فى معنى هذه الكلمة المشرفة :

وقد تكفلت ببيان ذلك كله وإثباته بالبراهين القطعية آيات الذكر الحكيم وأحاديث النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم . ومنهما استمد علماء فن التوحيد مباحثه فى باب الإلهيات والنبوات والسمعيات وأفاضوا فى ذلك إفاضة تشفى الصدور وتملأ القلوب بالنور وسموه (علم التوحيد ، وعلم العقائد ، وعلم أصول الدين) .

ولهذا العلم الصدارة فى ميدان العلوم وعليه المعول . وبنوره اهتدى المؤمنون ومن معينه ارتوى العارفون ، وهو وعلوم التفسير والحديث ، والفقه وأصول

الفقه والتصوف من العلوم الشرعية التى لايستغنى عنها طلاب العلم والعرفان . ومَن علم القدر الواجب معرفته منها كان على بيِّنة من أمره وبصيرة فى دينه وكان من الفالحين .

ولاشك أن أساس ذلك كله معرفةُ الواحد الأحد جلَّ جلاله واليقينُ بوحدانيته وسائر صفاته العليه وأسمائه الحسنى . وبتنزُّهه عما لايليق بجلاله .

وهذه المعرفة هى الغاية القصوى والمنهل الأصفى ويعبر عنها برسوخ الإيمان فى القلب .

والإيمان نور يقذفه الله فى قلب عبده تشرق به زجاجته فيرى ما شاء الله أن يرى من مكنونات العلوم والأسرار كأنه عِيان ومشاهدة . فينشأ عن ذلك التبتلُ إلى الله تعالى والإخلاص له والطمأنينة بذكره والخوف منه والرجاء فيه والتحلى بالأخلاق الكريمة ، والتخلى عن الصفات الذميمة والإقبالُ على الطاعات والانكفاف عن المعاصى والسيئات والفوز بقربه تعالى ورضاه .

وتلك هى السعادة العظمى :

٣ ـ الإله الحق هو الله تعالى وحده

والإله الحق هو الله تعالى الواجب الوجود الخالق البارىء المصور الرزاق المحيي المميت المدبر الحكيم الذى أحسن كل شىء خلقه وأبدع كل شىء صنعه، وأحكم كل أمر دبره وقضى كل شىء قدَّره فهو وحده الإله الحق الأزلى الأبدى المستحق للعبادة ظاهراً وباطنا المنزه عن كل نقص ، له الصفات العليا والأسماء الحسنى والعظمة والجلال لاشريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا آله سواه (إنما الله إله واحد) (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو) (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو) (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض)

(هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) (بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) .

٤ — افتقار الكائنات كلها إلى الله تعالى

وجميع الكائنات تنادى على نفسها بالعجز والافتقار إلى الله تعالى القوى القادر فى وجودها وبقائها وجميع شئونها ، وتشهد بلسان حالها أن : تعالى الإله الحق رب العالمين لاشريك له فى ألوهيته وربوبيته ولا فى صفاته وأفعاله ولا فى الخلق والإيجاد ولا فى الإحكام والتدبير بل الله وحده هو الخالق والمهيمن والقادر والمدبر والفاعل المختار الحكيم ، جلت قدرته ، وعظمت منته ، وسمت حكمته ، ودلت عليها صنعته القائمة على نواميس محكمة وأحكام مقدرة والتى أبدعها كلها بيد قدرته على أتم حال ، وأكمل نظام . فمصنوعاته الفاخرة ، ومخلوقاته الباهرة ، ومبدعاته الزاهرة التى ملأ بها أرضه وسمواته ناطقة بقدرته ووحدانيته وعظمته وجلاله وعلمه القديم ، شاهدة له سبحانه بالتدبير الحكيم .

وقد أحسن من قال :

فواعجبا كيف يُعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة	وتسكينة أثر شاهد
وفى كل شىء له آية	تدل على أنه واحد

وهذه الآية الدالة على وحدانيته هى وجود كل شىء على حالة تؤذن بالافتقار وجوداً وبقاء إلى من صنعه على تلك الهيئة وفطره على تلك الفطرة التى تجرى على أحسن تقدير لم تتشعب به إرادات مختلفة قال تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) وقال (ما اتخذ الله من ولد

وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) وقال (لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً) .

٥ — جهل المشركين وضلالهم

وما زعم الألوهية أو الربوبية أحد من خلق الله كالأحمقين اللعينين النمروذ وفرعون ولا زعمها زاعم لكائن من الخلق كالكواكب والأحجار والحيوان وغيرها إلا وآثار النقص والعجز والافتقار ، والحدوث والانقهار ظاهرة على الزاعم لها من الآدميين وعلى من ادعيت له من غيرهم ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو مكابر أحمق .

فما أعظم فرية المشركين وأخف عقولهم وأجهلهم بعظمة ربهم الذى خلقهم فسوّاهم — يجعلون له شريكا فى الألوهية والربوبية والملك والعظمة والتصرف فى الكون وتدبيره — عبداً مخلوقاً عاجزاً ضعيفاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ثم يعبدونه من دون الله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله) (إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) (ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) .

كيف والكائنات بأسرها من حيوان ونبات وجماد وسماء وأرض ومافيهما يراها أولئك الجاحدون بأعينهم عاجزة مقهورة فى أمور أنفسها فضلا عن أمور غيرها لاتقدر على شىء ثم يعبدونها ولكنهم عموا وصموا عن الحق واتبعوا أهواءهم فضلوا السبيل (إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب

التى فى الصدور) وقد كشف الله عن ضلال المشركين فى عبادتهم الأصنام بمثل بليغ ضربه وأمرهم بالتبصر فيه فقال تعالى (يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدَروا الله حق قدره إن الله لَقوى عزيز) .

والذباب مخلوق مع صغره وضعفه يحتوى على رأس وعينين وجناحين وأعضاء وقُوى على غاية من الدقة والإحكام ويتدرج فى نموه ويتوالد ويمضى فى الهواء فى كل اتجاه ويتغذى بما يسطو عليه من الغذاء فهو من دلائل إبداع صنع الله وقدرته الباهرة .

ولما عبد المشركون الأصنام من دون الله أظهر الله عَوارهم وفساد عقولهم وفاحش جهلهم بمَثل ضربه لهم فقال : إن هذه الأصنام التى تعبدونها بالغة من العجز والضعف مبلغاً يستحيل معه أن تخلق ذباباً على ضعفه وحقارته ولو اجتمعت وتعاونت على خلقه ، وذلك مالا يمكن إنكاره ، فكيف تعبدونها والعبادة إنما تكون للإله القادر على الخلق والإيجاد ؟؟

ومن بالغ عجزها أنها لا تستطيع أن تستنقذ من الذباب الحقير الضعيف ما يسلبه منها من الطيب والعسل اللذين تضمَّخ بهما تكرمة لها من عبدتها الجاهلين ولا أن تنتصف منه لنفسها فكيف تشركونها مع الله وتعبدونها مع هذا العجز الفاضح عن الانتصاف من أضعف خلق الله (ضعف الطالب) لما سلب منه وهو الأصنام (والمطلوب) منه رد المسلوب وهو الذباب[1] (ما قدروا الله حق قدره) ما عرفوه حق معرفته وما عظَّموه حق تعظيمه وما وصفوه حق وصفه حيث أشركوا به أصناماً عاجزة أشد العجز عن الانتصاف لنفسها من

(١) وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم . والأول أظهر .

أضعف الخلق وأحقره (إن الله لَقوى عزيز) قادر غالب فهو الحقيق بالعبادة وحده لا شريك له فكيف تتخذون العاجز المغلوب المقهور شبيهاً له ومعبوداً مثله .

وفى الحديث القدسى قال الله عز وجل « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة أو ذبابة أو حبة » .

٦ – دلالة الكائنات على القدرة الإلهية

ولقد أثبت العلم الصحيح والبراهين القاطعة أن الكون كله علويه وسفليه ناطقه وصامته مترابط الأجزاء متناسق التركيب متفاعل القوى لو انحرفت ذرة واحدة منه عن سَنَنها الذى رسم لها والذى خلقت لأجله قيد شعرة لاختل نظام العالم وتناثر عِقد إحكامه ووقعت السموات على الأرض ، فالعوالم كلها لا تزال ولن تزال متماسكة مترابطة متجاذبة تؤدى وظائفها التى خلقت لأجلها على أتم نظام وتدبير وإحكام إلى الوقت الموعود .

فمَن الخالقُ لكل ذلك ؟ ومن هو واهب هذه القوى العظيمة ؟ ومن هو المحرك للأفلاك فى السموات والمجرى لها فى مداراتها والحافظ لسيرها ونظامها والقائم بتدبيرها منذ وجد العالم والممسك للسموات أن تقع على الأرض ؟ ومَن هو المجرى للفُلك فى البحار وللسحاب فى الأجواء والمدبر للكائنات الأرضية كلها . والحفيظ على ما اشتملت عليه السموات والأرض من أفلاك ونجوم نيرات وأمم مختلفة الأجناس واللغات والطبائع ومصنوعات بديعة الصنع محكمة التدبير تؤدى وظائفها بإحكام طوال الدهور ! أليس هو الله رب العالمين العليم القدير المدبر الحكيم مالك الملك كله بلا شريك ولا معين (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع

على الأرض إلا بإذنه) (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) (وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم) (ذلك تقدير العزيز العليم) لا إله إلا هو سبحانه .

وكذلك أودع الله تعالى فى الإنسان والحيوان من سر الحياة والتكوين مالا يقدر عليه سواه .

وإذا حاول أمهر المصورين والصانعين محاكاة شيء منهما فلن يكون إلا فى الصورة فقط . أما بعث الحياة والاستعداد للنمو والحركة فلن يستطيعه أحد من الخلق وإنما هو الله وحده سبحانه (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

وكذلك جميع الخواص والمنافع التى أودعها الله تعالى فى مخلوقاته كما علم وأراد لن يستطيع أحد من الخلق إيجاد خاصة منها لشيء لم يرد الله أن تكون له (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) فهل للشركاء الذين أقامهم المشركون للعبادة من دون الله قدرة على شيء من ذلك ؟؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم لا رب سواه ولا معبود إلا إياه .

---

٧ — تسبيح الكائنات بحمده تعالى

وكذلك كل ما فى الوجود ناطق بلسان حاله بقدرته تعالى ووحدانيته وحكمته وتدبيره فى صنعه وبافتقاره إليه فى وجوده وكينونته وبقائه ، ناطق

بحمده تعالى على ما أفاض من نعمه وإحسانه وجوده وكرمه سبحانه (تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لأنه ليس بالجارحة بل بلسان الحال وهو أفصح وأصدق فى هذا البيان لا يحتمل كذباً ولا رياء ولا تأويلا ، بل قال بعض المحققين إنه تسبيح حقيقة بنطق وبيان ، وقد أقدر الله بعض أصفياء عباده على فهم تسبيح بعض الحيوان والجماد كداوود وسليمان ومحمد عليهم الصلاة والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما استقبلنى جبريل عليه السلام بالرسالة جعلت لا أمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه « كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام » .

وقال أنس رضى الله عنه : أخذ النبى صلى الله عليه وسلم كفاً من حصى فسبحن فى يده حتى سمعت التسبيح ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن ثم فى أيدينا فما سبحن .

وقال تعالى فى شأن داود عليه السلام (إنا سخَّرنا الجبال معه يسبحن بالعشىِّ والإشراق) وقال (ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوِّبى معه) أى سبِّحى معه فكان إذا تخلل الجبال وسبح تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح .

وكلام النمل لسليمان عليه السلام منصوص فى القرآن بصورة واضحة لا تدع مجالا للشك أو التأويل فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجل أن تناله الظنون والأوهام وهو الملك المتعال ، أو تحيط به الجهات وهى من خلقه ، أو تعتريه سمات الحادثات وهى محل التغيير والفناء ، أو يشركه أحد فى ذاته أو صفاته أو أفعاله وهو المنفرد بالوحدانية فى كل ذلك سبحانه وتعالى عما يصفون .

٨ — كلمة التوحيد وحقها على العباد

واعلم أيها الأخ أن جميع العلوم الدينية ووسائلها ترجع إلى شرح هذه

الكلمة المشرفة وبيان حقها على العباد وما يتبعه من أمور العبادات والمعاملات اعتقاداً وقولا وعملا ، وقد تقدم شرح معناها .

أما حقها فاعلم أنه التصديق بمعناها تصديقاً يقينياً والإقرار بها إقراراً صادقاً والخضوع للألوهية خضوعاً كاملا بالتزام العبادة والطاعة والانقياد لجميع الأوامر والنواهى .

فيشترك فى القيام بحقها القلب واللسان والجوارح .

وهى فى جملتها ميثاق بين العبد وربه على القيام بحقها ، والتزام من العبد بذلك مادام فى الدنيا طمعاً فى النجاة والفوز فى الأخرى إذا وفى به .

وقد قيل لوهب بن منبه : أليس مفتاح الجنة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ قال بلى ولكن لكل مفتاح أسنان لا يفتح إلا بها . ومن أسنانه لسان طاهر من الكذب والغيبة ، وقلب خاشع طاهر من الحسد والخيانة ، طاهر من الحرام والشبهة ، وجوارح مشغولة بالخدمة طاهرة من الآثام (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) فمن صدق بها بجنانه وأقر بها بلسانه وقام بموجبها بجوارحه سعد فى دنياه وآخرته وكان مؤمناً حقاً ومسلماً صدقاً ، ومن لم يصدق بها بقلبه فهو كافر مخلد فى النار .

ومن أقر بها بلسانه ولم يصدق بقلبه فهو منافق مخلد فى النار .

ومن صدق بها بقلبه وأقر بها بلسانه ولكنه لم يقم بموجبها بجوارحه فهو مؤمن عاص يعذب على عصيانه ماشاء الله أن يعذب ولا يخلد فى النار .

ومن ثمرات التصديق القلبى والإقرار اللسانى بهذه الكلمة المشرفة أن العبد لو عاش طول عمره جاحداً وحدانية الرب تعالى وعظمته وجلاله وقدرته ، يعبد الصنم ويخضع للوثن ثم قالها مؤمناً مقراً بها عصم ماله ودمه وخرج من ذنوبه وآثامه كيوم ولدته أمه لأن الإسلام يجب ماقبله والتوبة تمحو الذنوب

وفى الحديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .

وحق الإسلام ماشرعه الله من القصاص والحدود فلا تمنع كلمة الشهادة قائلها بعد أن التزم بأحكامها من إقامة الحد عليه قتلا أو قطعاً أو تعزيراً إذا فعل ما يوجبه من قتل أو زنى أو سرقة أو إضرار فذلك حق الإسلام .

وإنما قال « وحسابه على الله » لأن الإقرار ظاهر والتصديق والإذعان فى السرائر ولا يطلع عليهما إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ولم نؤمر بالتنقيب عن القلوب وإنما أمرنا بالعمل بالظاهر رحمة من رب العالمين .

٩ — توقف الإسلام على الجمع بين الشهادتين

ثم إن جميع الأحكام المترتبة على هذه الكلمة الطيبة فى الدنيا والآخرة لا يظفر بها إلا من جمع بين الشهادة بها والشهادة بالنبوة والرسالة لخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن أقر بشهادة التوحيد لله تعالى وأنكر الشهادة بالرسالة له صلى الله عليه وآله وسلم فليس من أهل التوحيد ، بل هو كافر بالله كالذى ينكر التوحيد ، مكذب لخبر الله عن رسوله ولأمره بالشهادة له وبالرسالة وبطاعته واتباعه وسلوك طريقه وتحذيره تعالى من مخالفة أمره قال تعالى (محمد رسول الله) وقال (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم) (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا) (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) إلى غير ذلك من الآيات فى هذا الباب .

ولا تتم الشهادة بالرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يعتقد عمومها إلى كافة الخلق من العرب والعجم والإنس والجن قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) فمن نفى عموم رسالته أو قال إنه رسول إلى العرب خاصة فقد كفر لما سمعت من الآيات الصريحة بعمومها. وقال عليه الصلاة والسلام «بعثت إلى الناس كافة». وكاتب ملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام ما أمكنه التبليغ.

وانتشرت دعوة الإسلام فى كافة أنحاء الدنيا ومختلف أممها من أنواع البشر وأقبلت عليه برغبات صادقة وقلوب واعية.

وأذكر للمناسبة أبياتاً من قصيدة قلتها فى دعوته صلى الله عليه وسلم وهى:

ولقد هبطت إلى البلاد معلماً ... كالغيث طبق عرضها والطولا
أو كالمنيرة فى ضحاها لم تدع ... ليـلا ولا نجما ولا قنديلا
وتركتها سمحاء لامعة الصوى ... جرّت على كثب السماء ذيولا
دارت مع الملوين واتخذت لها ... جند الحقيقة مسعدا ومديلا
وسفيرها القرآن يهـدى للتى ... منهاجها أقوى وأقوم قيلا

١٠ ـ دلائل وجود الله ووحدانيته

علمت أن كل ما حواه الوجود من مبدعات كاملة ومخلوقات مختلفه سماوية وأرضية وحيوان ونبات وجماد دلائل على القدرة الإلهية وحسبُ العاقل أن يفكر فيها وفى صنعها وإحكامه ليستدل بها على وجود الله وقدرته الباهرة ويخضع لجلاله وعظمته وكماله وحكمته ويعبده حق عبادته وكلها مبثوثة فى الكتاب والسنة ومرقومة فى صحائف الوجود.

ومن القضايا البديهية أن كل مصنوع لابد له من صانع وكل حادث لابد له من محدث.

فهل يقبل العقل أن دارا انتصبت بنفسها من غير بانٍ ومهندس، وأن فلكا وجد من غير صانع ماهر، وأن السموات مرفوعة بنفسها وأفلاكها متحركة بإرادتها — كلا.

وهل يقبل عقل أن تقوم هذه المملكة العظيمة المحكمة فى السماء والأرض بلا صانع قادر حكيم؟ كلا ثم كلا، بل كل ذلك بخلقه تعالى وقدرته وحكمته وحده لاشريك له فى شىء من ذلك.

قيل لأعرابى: ما الدليل على وجود الإله تعالى؟ فقال سبحان الله إن البعر ليدل على البعير وإن أثر الأقدام يدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا يدل ذلك على وجود العلى القدير؟

وسأل بعض الزنادقة الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه: عن دليل وجود البارى عز وجل وتهددوه إن لم يقنعهم فقال: دعونى فإنى مفكر فى أمر عجيب قد أخبرت عنه: ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد قالوا هذا شىء لا يقوله عاقل، قال ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

* * *

ومما جاء فى القرآن الكريم من الآيات الداعية إلى وجوب التأمل والتفكر فى بدائع الصنع الإلهى فى كل شىء كائن للاستدلال بها على قدرة الصانع ووجوده ووحدانيته فى مملكته قوله تعالى (أولم يتفكروا فى ملكوت

السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأنْ عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر) (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) إلى غير ذلك من الآيات .

١١ — قصيدة رائعة

للامام عبد الله بن جعفر مدهر

وإليك قصيدة عصماء فى مجال التنويه بعظيم صنع الله والتنزيه لكماله وجلاله والتذكير بنعمائه ونواله للسيد الإمام عبد الله بن جعفر مدهر العلوى نذكرها بنصها لترابط درارى نظامها وأخذ معانى بعضها برقاب بعض واشتمالها على لطائف ومعارف ونظام تهيم فى فهمها الأفهام وتسكر الأرواح من أنسها وقد سبتها بغير مدام وتزكو طيبا من ريّا نفحات مسك ذلك الختام فلاعتب إذن على المحب إذا أطنب فى نعتها ولا ملام ولا إذا تمنى أن يدنو من مضارب خيامها ويحظى برشف الحميا وكشف اللثام وهاهى القصيدة :

بانت القدرة من رب قدير — وتجلت فهى نور فوق نور
صدع الحق بما أوضحه — صاحب القوة والشأن الكبير
هذه النيران لاحت للهدى — فى دجى الليل فجدّوا فى المسير
إن موسى قد كفته قبلها — خير نار أوقدت من خير طور
سبقت أرواح قوم عطشوا — فارتووا من ذلك الماء النمير
وسقوا جمر النوى خمر الهوى — فتداووا من جمار بخمور
وتبقوا بين أحوال فهم — بين أفراح وطيب وسرور
وحضور وحبور ورضا — وقصور وجنان وزهور

* * *

قف على أبوابه معترفا — فى مقام البائس العبد الفقير
باسط الكف إلى ذى كرم — واسع المعروف تواب غفور
متعال دائم منفرد — صَمد مقتدر برٌّ شكور
وعلىٌّ وعظيم قاهر — ورفيع وسميع وبصير
وحليم وكريم محسن — ورؤف ولطيف وخبير
جل ذو القدرة فى قدرته — عن نديد وسمى ونظير
وتعالى عن صباح ومسا — هو فيه أو عشى أو بكور
ومكان وزمان يحتوى — منه تكييف قديم وأخير
أو بدوٍّ أو نهايات مدى — أو عديد من سنين أو شهور
أو عيون أو ظنون أدركت — أو دهور فهو خَلاق الدهور

* * *

يانجوم الليل من ردك من — جانب المشرق عقبى أن تغُورى
مَن سواه صاحب العز الذى — قال بالقدرة للأفلاك دورى
ياهلالا عاد كالعرجون مَن — خل عن جسمك لالآء البدور
قل لهذى الشمس من عرفها — طرقها بين ورود وصدور
تقطع الدنيا نهاراً واحداً — ويكل الريح منها فى المسير

* * *

إن فى الأرض كآيات السما — بينات ظهرت أى ظهور
من ثمار من نبات طالع — من سيول من غمام من بحور
من جبال أنزلت من برد — لاقت الشمس فذابت بالحرور

ونهار بعد ليل دامس   وظلام آخر الصبح المنير
وحياة وممات فيهما   يستوى حال صغير وكبير

* * *

كل ذا بالكاف والنون جرى   فهو من غير لغوب وفتور
ياخفى اللطف ياديان يا   ذا العطا ياجابر العظم الكسير
ياغياث المستغيثين ويا   ملجأ اللاجى وأمن المستجير
ياملاذى كن ملاذى واكفنى   كل سوء يانصيرى كن نصيرى
واكفنا من هم دنيانا ومن   شدة الموت ومن نار السعير
وصلاة الملك الأعلى على   أحمد المختار تكرار العصور

* * *

قال بعض العارفين من طلب دليلا على وحدانية الله فالحمار أعرف بالله منه، فلا يكن نظرك إلى الموجودات نظر الطفل الرضيع أو الجامد الجاحد يراها أمام بصره هيا كل ماثلة بل نظر المعتبر الرشيد يشهد الصانع فى الصنعة ، ويشهد المكون فى الأكوان فإن إستعظم خلقها وتكوينها فخالقها أعظم وهو بكل شيء محيط . ولله در من قال :

كل ما ترتقى إليه بوهم   من جلال وقدرة وسناء
فالذى أبدع البرية أعلى   منه سبحان مبدع الأشياء

١٢ ــ أثر التوحيد وكلمته المشرفة

إن التوحيد أعظم النعم وأنفعها فى الدنيا والآخرة . فعلى من أنعم الله عليه به أن يعرف قدر تلك النعمة ويسعى فى حفظها ورعايتها ودوام الشكر عليها والاغتباط بها وأن يجتهد فى تقوية توحيده بملازمة الأخلاق الحسنة

والأعمال الصالحة التى هى فروع التوحيد وثمرات الإيمان مع اجتناب أضداد ذلك من الأخلاق السيئة والمعاصى .

وفى الحديث لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، والمعاصى بريد الكفر، وعند فقد التوحيد والإيمان لاينفع شيء من الأعمال ولو كان عمل الأولين والآخرين ، وحيث بقى مع الإنسان توحيده وإيمانه فلا يضره شيء ولو قارف المعصية فإنه لايخلد فى النار بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وإن للشهادتين أثراً عظيما فى تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق وتقوية الرابطة الاجتماعية فإن فى شهادة أن لا إله إلا الله تحريراً للعقول من الأوهام وتطهيراً للنفوس من أدران الشرك وسموا بها من حضيض العبودية لغير الله تعالى ومن الانحطاط إلى رذيلة عبادة الأصنام والحيوان والإنسان ،وبها جمع القلوب على معبود واحد ، وتوجيه الوجوه إلى قبلة واحدة ، ولهذا التوحيد أثره الطيب فى جمع القلوب وتعاون بنى الإنسان على الخير والصلاح . كما أن فى شهادة أن محمداً رسول الله والإيمان برسالته وكتابه القويم تقوية للأخلاق وإصلاحا للنفوس وأسوة حسنة فى جميع الشئون .

فهاتان الكلمتان هما كنز المؤمن ورأس ماله ومرجع سعادته فى الدنيا والآخرة لمن تحقق بمقتضاهما واستنار بسناهما فيما يلزمه من جانب التوحيد والتعلق بالجناب الأقدس واستلهام واردات إمداداته والتعرض لنفحات وصله وصلاته وفيما يلزمه من جانب الاتباع لرسوله الأكرم العروة الوثقى والأسوة الحسنة فى سائر المعاملات الدينية والدنيوية وفى صلاح المعاش والمعاد والقلب والقالب والفرد والمجموع ، فعلى قطب هاتين الشهادتين يدور صلاح بنى الإنسان فى الدارين .

واعلم أن لهذه الكلمة المشرفة شطرين أحدهما نفى وهو قولك لا إله والآخر إثبات وهو قولك إلا الله. فإذا صدر النفى معقبا بالإثبات فمعناه من المسلم تقرير التوحيد فى القلب بهذه الكلمة الشريفة المنافى للشرك الأكبر الذى يقدح فى أصل الإيمان ويتأكد بتكرارها قلبا ولسانا قال عليه الصلاة والسلام «جددوا إيمانكم بلا إله إلا الله»، والمنافى أيضاً للشرك الأصغر وهو الرياء فى العبادة وحب التعاظم على الخلق والإستعلاء عليهم وغير ذلك من كل عمل يلاحظ فيه العامل نظر الناس ويشتهى ثناءهم وتعظيمهم والمنزلة عندهم وفى الخبر «الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل» وهذا الشرك الأصغر لا يقدح فى أصل الإيمان الذى يدور عليه أمر النجاة ولكن يقدح فى كماله، فكلمة لا إله إلا الله تنفى الشرك الأكبر والأصغر من الناطق بها المخلص اعتقاداً وعملا، وفى تقدم النفى وهو لا إله، تخلية للقلب عن تلك الخفايا والأدران ثم تحليته وعمارته بأنوار التوحيد والإيمان بذلك الإثبات وهو إلا الله - فلا جرم أن فى ملازمة الذكر وتكريره حصول تصفية الفؤاد وتطهيره وتزكيته من الشوائب وتنويره، وتوفر الحسنات بأعداد الذكر كل تهليلة بحسنة ومضاعفة الواحد بعشرة إلى أضعاف كثيرة فإذا لاحظ الذاكر أنها آية من القرآن وقصد القراءة مع الذكر كتب له ثواب التلاوة.

ومن لطائف الإشارة أن كلمة الشهادة حروفها جوفيه ليس فيها شىء من الحروف الشفهية للاشارة إلى الإتيان بها من خالص الجوف وهو القلب لا من الشفتين، وأنه ليس فيها حرف معجم بل مجردة من النقط إشارة إلى التجرد من كل معبود سوى الله. وأن لا إله إلا الله محمد رسول الله. سبع كلمات وللعبد سبعة أعضاء وللنار سبعة أبواب فكل كلمة من هذه السبع تغلق بابا من الأبواب السبعة عن كل عضو من الأعضاء السبعة.

١٣ - تنبيـه مهم

حيث علمت أن الإله هو المعبود بحق وأن العبادة لا تكون لغيره ويعبر عنها بغاية الخضوع والتذلل لجلال الله وعظمته وأداء الأعمال الشرعية عبودية له واستسلاما، ودعائه والاستعانة به فى الملمات تضرعا وابتهالا والخوف والرجاء منه والرغبة والرهبة والحب والإخلاص له والتأله والالتجاء إليه والتوكل والاعتماد عليه إلى غير ذلك من واجبات ربوبيته وجلاله، ذلك المعنى الربانى والشعور الدينى الذى لا تعنو وتخنع وتسخو به نفس المؤمن إلا لمولاها وخالقها عبودية وعبادة وعبودة - فاعلم أنه لا ينافى العبادة والاستعانة به تعالى تعاطى الأسباب الحسية والمعنوية فى دائرة ما أباح الله لعباده منها كتناول الدواء والاستشفاء بآيات الله وأسمائه والاستعانة فى غير مذلة بشخص لقضاء مصلحة مشروعة كالتماس الدعاء من مسلم والتوسل به فيما لا يعدو مقدرته وطوره إلى الله تعالى وذلك بالتوجه إليه تعالى فى قضاء ما رامه المتوسل من مطالب الدنيا والآخرة كما وعد بذلك فى حديث «ما تقرب إلى المتقربون بمثل اداء ما افترضته عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ورجله التى يمشى بها ويده التى يبطش بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه»، ولا يطلب المتوسل من المتوسل به الايجاد والانشاء لأن ذلك لله تعالى وحده وليس فى مقدرة العباد وطورهم.

ومثل خفض الجناح لوالديه من الذل والرحمة، ولين الجانب والتواضع للمسلمين، وتوقير أولى العلم والصلاح والشرف والتأدب لهم - لا يقدح كل ذلك فى توحيد المسلم مادام مستيقنا أن هذه كلها أسباب لا ثمرة لها ولا تأثير إلا بإذن الله تعالى ومعونته ومادام يرد كل النتائج والآثار إلى الله تعالى ولا ينسب منها شيئاً إلى المخلوقين إلا على سبيل التسبب والمجاز فلا تسمى هذه عبادة ولكنها

من تعاطى الأسباب وتبادل المنافع والتعاون على البر والتقوى ، ومعلوم أن التعاون إعانة كل للاخر وهى فى حدود مقدرة الآدميين لا تتجاوز السبب والمجاز وربنا يقول ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ وفى الخبر « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

هذا هو اعتقاد أهل السنة والجماعة والسواد الأعظم من الأمة المحمدية وعليه عملهم من لدن القرون الثلاثة إلى يومنا هذا ، ومقرر فى كتبهم المستفيضة شرقاً وغربا فراجعها إن شئت .

وقد يلتبس على بعض الناس موجب المنع ومقتضى الجواز فى عمل من أعمال المكلفين لخفاء العلة فيحكم بحرمة انحناء الرأس عند تقبيل يد الوالد أو عالم صالح مثلا زعما منه أنه تحية وتعظيم مختص به الله ، ولظاهر ما فى حديث « إن الرجل منا يلقى أخاه فينحنى له قال لا قال فيلتزمه قال لا قال أفيأخذ بيده قال نعم » .

ولكن ينبغى تدقيق النظر فى مثل ذلك فيعلم أنه ليس كل انحناء يقصد به التعظيم فقد يكون ذريعة لغيره . فالانحناء عند التقبيل إنما هى وسيلة عارية عن معناه الذى يقتضى الحرمة ، وفسر العلماء المنهى عنه فى الحديث بالذى يقصد به نفس التحية والتعظيم كما هو تحية عند بعض الأمم .

١٤ ــ واقعة حال

وأذكر حادثة جرت لى مع بعض الإخوان وقد رآنى فى جماعة من المصلين فى المسجد نتصافح وبعضهم يقبل يد من يرى له ذلك فنادانى بحدة وقال لماذا تفعلون هكذا هذا شرك ؟ فقلت له مهلا يا أخى قد تعجلت بتشريك إخوانك المصلين . أكل من حنى رأسه لحاجة يحكم عليه بالشرك . أنت الآن تخرج من المسجد وتحنى رأسك للبس نعلك وتذهب إلى بيتك فتحنى رأسك لصحن طعامك وتحنو على طفلك فتحنى رأسك لتقبيله وهكذا . أفتعد كل انحناء شركا . لقد استكثرت من أسباب الشرك أما نحن فما خرجنا عن الإسلام ولا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ولا نكفر من أمَّ قبلتنا ونحسن ظننا فى كل موحد ونعلم أن التعظيم الحق إنما هو لله وحده وأن هذه الانحناءات لا للتعظيم بل لحاجات مشروعة وآداب مرعية .

١٥ ــ لابد للدخول فى الإسلام من النطق بالشهادتين

قدمنا أنه لابد فى الإسلام من الشهادتين اعتقاداً فلا يعد مسلما من شهد لله بالوحدانية وجحد الرسالة ونقول هنا إنه يشترط لمن أراد الدخول فى الإسلام أن ينطق بالشهادتين معاً بلفظ أشهد أو بترجمته وهى اللفظ الدال على العلم اليقينى والاذعان القلبى والتصديق الواقعى حتى كأن ما علمه وأيقن به أمر مشاهد محسوس فيقول « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » فلا يكفى قوله لا إله إلا الله بلا شهادة ولا اعتراف ولا قوله محمد رسول الله بدون ذلك .

وينبغى لمن يسلم على يديه أحد الناس أن يلقنه الشهادتين أو مرادفهما من لغة أخرى بما يفيد معناهما وانكار ما يخالفهما وعدم التردد فيهما مع التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام ، وإذا جاءه من يريد الإسلام فليبادر بتلقينه الشهادتين ولا يؤخره ولو كان على المنبر فى خطبة الجمعة فينزل ريثما يلقنه الشهادتين ثم يعود ، ولا تبطل خطبته فإن التأخير رضا ببقائه على الكفر وقد جاء مستسلما والرضا بالكفر كفر وقد تخترمه المنية قبل التلقين ، وفى ذلك خطر عظيم .

ولا يأخذ على تلقينه الشهادتين ودعوته إلى الإسلام أجراً فإن ذلك واجب وأجره على الله، وأخذ الأجر عليه من العبد مساومة فى الدين وتنفير من الإسلام وحرمان من الثواب الجزيل ، ومن أسلم على يديه أحد فله الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم « من أسلم على يديه رجل وجبت له الجنة » .

١٦ — أول مايجب تعليمه

وأول مايجب تعليمه لمن دخل فى الإسلام الأمور الضرورية التى لايقوم الإسلام إلا بها كأركان الدين والعلم بوجوب الصلوات الخمس وكيفية فعلها وشرائطها ومواقيتها والطهارة لها ، وكالعلم بوجوب الزكاة والقدر الواجب منها والوقت الذى يجب فيه ، والعلم بوجوب صوم رمضان وشرائط الصوم ومبطلاته ، والعلم بوجوب الحج على المستطيع ومابه الاستطاعة وسائر المناسك، والعلم بوجوب الواجبات العينية وبتحريم جميع المحرمات التى هو عرضة للوقوع فيها كالزنى واللواط وشرب المسكر والخيانة والقتل والسرقة والكذب والغيبة والنميمة وأشباه ذلك . وكالعلم بما تمس إليه حاجته الضرورية من شروط صحة البيع والشراء ، والمعاملات ، والنكاح ، وما إلى ذلك ليعمل بذلك عملا صحيحاً .

وكل ذلك بالحكمة والرفق مع الحرص على التأليف واجتذاب القلب وإزالة الشبه والشكوك التى أثارها فى نفسه أعداء الإسلام قبل إسلامه ببيان واضح مدعم بالدليل لترسخ فى نفسه الحقائق الإسلامية وتزول الوساوس الشيطانية والأباطيل الكيدية .

ومن أهم الأمور معرفة مايجب لله تعالى وما يستحيل وما يجوز معرفة راسخة يقينية ويعينه على ذلك دراسة عقيدة جامعة على مذهب أهل السنة والجماعة كعقيدة حجة الإسلام الغزالى وعقيدة الإمام عبدالله بن علوى الحداد، وكذا معرفة أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم واسم أبيه وأمه وأنه ولد بمكة وبعث بها وهاجر

إلى المدينة وتوفى ودفن بها ، والإلمام ببعض معجزاته وأخلاقه وفضائله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لا يسع مسلماً جهله . أو مما يحسن علمه .

وهناك نص عقيدة الإمام الحداد ، وآثرتها بالذكر لاختصارها واشتمالها على مالابد منه من خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة، نخذها بقوة لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

١٧ — عقيدة الإمام الحداد[1]

قال نفع الله به :

الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، (وبعد) فإنا نعلم ونعتقد ونؤمن ونوقن ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله عظيم ملك كبير لا رب سواه ولا نعبد إلا إياه . قديم أزلى ، دائم أبدى لا ابتداء لأوليته ولا انتهاء لآخريته ، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لا شريك له ولا نظير وليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وأنه تعالى مقدس عن الزمان والمكان وعن مشابهة الأكوان لا تحيط به الجهات ولا تعتريه الحادثات مستو على عرشه على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء يليق بعز جلاله وعلو مجده وكبريائه ، وأنه تعالى قريب من كل موجود وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وهو على كل شىء رقيب وشهيد ، حىٌّ قيوم لا تأخذه سِنة ولا نوم ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل .

(١) شرح هذه العقيدة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء بالأزهر وطبع مراراً مع العقيدة بمصر والسعودية ، وانتفع بهما خلق كثير والحمد لله .

وأنه تعالى على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم قدأحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيءعددا ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات وأنه لا يكون كائن من خير أو شر أو نفع أو ضر إلا بقضائه ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا عن ذلك .

وأنه تعالى سميع بصير متكلم بكلام أزلى لا يشبه كلام الخلق وأن القرآن العظيم كلامه القديم وكتابه المنزل على رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنه سبحانه الخالق لكل شيء والرازق له والمتصرف فيه كيف يشاء، ليس فى ملكه منازع ولا مدافع يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وأنه تعالى حكيم فى فعله عادل فى قضائه لا يتصور منه ظلم ولا جور ، ولا يجب عليه لأحد حق ولو أنه سبحانه أهلك جميع خلقه فى طرفة عين لم يكن بذلك جائرا عليهم ولا ظالماً لهم فإنهم ملكه وعبيده وله أن يفعل فى ملكه ما يشاء وما ربك بظلام للعبيد ، يثيب عباده على الطاعات فضلا وكرماً ويعاقبهم على المعاصى حكمة وعدلا .

وأن طاعته واجبة على عباده بإيجابها على ألسنة رسله عليهم السلام ،

ونؤمن بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله ، وبملائكة الله ، وبالقدر خيره وشره .

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الجن والإنس والعرب والعجم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد فى الله حق جهاده ، وأنه صادق أمين مؤيد بالبراهين الصادقة والمعجزات الخارقة ، وأن الله فرض على العباد تصديقه وطاعته واتباعه ، وأنه لا يقبل إيمان عبد ، وإن آمن به سبحانه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبجميع ما جاء به وأخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة ، ومن ذلك أن يؤمن بسؤال منكر ونكير للموتى عن التوحيد والدين والنبوة ، وأن يؤمن بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذابه لأهل المعصية ، وأن يؤمن بالبعث بعد الموت وبحشر الأجساد والأرواح إلى الله تعالى والوقوف بين يدى الله تعالى وبالحساب ، وأن العباد يتفاوتون فيه إلى مناقَش ومسامَح وإلى من يدخل الجنة بغير حساب .

وأن يؤمن بالميزان الذى توزن فيه الحسنات والسيئات ، وبالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم وبحوض نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وماؤه من الجنة .

وأن يؤمن بشفاعة الأنبياء ثم الصديقين والشهداء والعلماء والصالحين والمؤمنين وأن الشفاعة العظمى مخصوصة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يؤمن بإخراج من دخل النار من أهل التوحيد حتى لا يخلد فيها من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وأن أهل الشرك والكفر مخلدون فى النار أبد الآبدين لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون .

وأن المؤمنين مخلدون فى الجنة أبداً سرمداً لا يمسهم فيها نصَب وما هم منها بمخرجين .

وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم على ما يليق بجلاله وقدس كماله ، وأن يعتقد فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترتيبهم وأنهم عدول أخيار أُمناء لا يجوز سبهم ولا القدح فى أحد منهم وأن الخليفة الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو بكر الصديق ثم عمر الفاروق ثم عثمان الشهيد ثم على المرتضى رضى الله عنهم وعن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين بإحسان لهم إلى يوم الدين وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

فهذه هى العقيدة السديدة الموافقة للكتاب والسنة الحميدة التى لا يسع مسلماً ذكراً كان أو أنثى جهلها ولا يصلح الإيمان بدون اعتقاد معانيها ولا يشترط أن يحسن كل إنسان التعبير عنها إذ الاعتداد بما يشتمل عليه القلب .

١٨ — فضائل الكلمة المشرفة

ويحسن أن نشير هنا إلى طرائف من فضائل تلك الكلمة الشريفة وما فى ذكرها من اللطائف والأسرار المنيفة . فمن ذلك ماصح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» .

وقال عليه الصلاة والسلام « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم وكأنى بهم وقد خرجوا من قبورهم ينفضون التراب عن رءُوسهم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام « أفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله» وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه « إنى أنا الله لا إله إلا أنا من

أقر لى بالتوحيد دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى » وقال عليه الصلاة والسلام « جددوا إيمانكم . قالوا . وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله » وقال عليه الصلاة والسلام « سبحان الله نصف الميزان والحمد لله تملؤه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب » وقال صلى الله عليه وسلم : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان منه من العمل » وفى رواية لمسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» قيل يارسول الله وما إخلاصها ؟ قال « أن تحجزه عن محارم الله » وقال عليه الصلاة والسلام « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها تهدم ما كان قبلها من الخطايا » وقال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ « يامعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صادقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » وقال عليه الصلاة والسلام لأبى هريرة رضى الله عنه « أذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة » .

وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله ما الموجِبتان ؟ قال « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات يشرك بالله دخل النار » .

وجاء أن موسى عليه السلام قال يارب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك، قال ياموسى قل لا إله إلا الله قال يارب كل عبادك يقولون هذا ، قال ياموسى

لو أن السموات السبع وعامرهن والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل : «أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به . فقلت يارسول الله أفلا أبشر الناس قال: لاتبشرهم فيتكلوا» .

وقال عليه الصلاة والسلام :« أتانى جبريل فقال بشر أمتك أن من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت ياجبريل : وإن سرق ، وإن زنى ، قال : نعم . قلت : وإن سرق ، وإن زنى .قال :نعم ، قلت : وإن سرق ،وإن زنى قال : نعم ، وإن شرب الخمر» .

١٩ ــ حسن الخاتمة وسوءها

إن الموت على التوحيد والإسلام هوغاية سعادة الحياة وربح تجارتها ،ولا يزال المسلم متضرعاً وسائلا من الله أن يتوفاه مسلماً وبذلك وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده فقال مخبراً عن يوسف عليه السلام (أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) وحكى تعالى عن إبراهيم أنه وصى بنيه وعن يعقوب أنه وصى بنيه أيضاً عليهما السلام بالموت على الإسلام فقال تعالى : ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ إلى قوله : ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ .

وعلى الإنسان أن يجتهد حق الاجتهاد فى حفظ إسلامه وتقويته بامتثال أوامر الله تعالى فإن المضيع لأوامر الله متعرض للموت على غير دين الإسلام فإن تركه الامتثال دليل على استهانته بحق الدين .

وعليه أن يجانب المعاصى والآثام فإنها تضعف الإسلام وتزلزل قواعده وتعرضه للسلب عند الموت وأن لا يزال سائلا من الله حسن الخاتمة، والموت على الشهادة ، وخائفا وجلا من سوء الخاتمة فإنها القاصمة والله مقلب القلوب يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

واعلم أن كثيرا ما يختم بالسوء للذين يتهاونون بالصلاة المفروضة والزكاة الواجبة ، والذين يتتبعون عورات المسلمين ، والذين ينقصون المكيال والميزان، والذين يخدعون المسلمين ويغشونهم ويلبسون عليهم فى أمور الدين .

(ومنهم) الذين يغضون من مكانة السنة النبوية ويدعون إلى انتقاصها بإلقاء الريب والشكوك فيها وهى أعظم مجموعة من الآثار النبوية فى التاريخ الإنسانى فإنه لم يحفظ لنبى من الأنبياء من الأقوال والأعمال والأحوال ما حفظ لنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد حوت السنة من الأحكام التشريعية والتنظيمات الإجتماعية والمعانى الفذة الواسعة والمعارف الجامعة مالم يجتمع فى أى مجموعة غيرها .

وقد عنى أئمة الحديث بتدوينه وتمحيص رواياته أسانيد ومتونا تمحيصاً كاملا حتى ميزوا صحيحها وبينوا سقيمها وقدموا للأمة صفوتها التى يعتمد عليها فى التشريع الإسلامى وفيما به الاقتداء والاهتداء لأمة المسلمين من سنن النبى الأمين .

وقد تبع هؤلاء الملبسون أعداء الإسلام المستشرقين فى هذه الدسيسة الخبيثة واستدلوا بحديث لا يصح وهو ، ما جاءكم من حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمنى وما خالفه فليس منى » ذكره « جولدتسيهر » فى كتابه العقيدة والشريعة وهو كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما الذى صح

عنه عليه السلام « لا ألفينّ أحدكم متكأً على متكىء يصل إليه عنى حديث فيقول لا نجد هذا الحكم فى القرآن ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » .

وأخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمى مرفوعا – «أيحسب أحدكم متكأً على أريكته أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها كمثل القرآن أو أكثر وأن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذى عليهم ».

٢٠ – السنة الأصل الثانى من أصول التشريع

وإذا علمت أن السنة هى أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وتقريراته فاعلم أنها وحى غير متلو قال تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) وقال (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) والكتاب هو القرآن والحكمة هى السنة أنزلها عليه بوحيه وإلهامه ، وإنما يمتاز عنها القرآن بأن ألفاظه العربية منزلة من عند الله وأنه معجز للبشر لا يأتى أحد بمثله ولا بمثل أقصر سورة منه وأنه معجزة باقية على وجه الدهر محفوظة من التغيير والتبديل ، إلى خواص كثيرة للقرآن ليست للسنة من تعلق الثواب بتلاوته وعدم جواز روايته بالمعنى ولا مس ما كتب فيه ولا حمله مع الحدث ولا كذلك الأحاديث سواء كانت قدسية أو غيرها .

وهى بيان وشرح للقرآن قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) فبين صلى الله عليه وآله وسلم وفصل وأوضح بقوله وفعله وتقريره ما أجمل فى الكتاب كعدد الركعات فى الصلوات وأوقاتها

وشرائطها وسننها ونُصُب الزكوات فيما تجب فيه الزكاة وكذلك ما يتعلق بالصوم والمناسك فى الحج والعمرة من أركان وشروط ومفسدات وغير ذلك ، كما جاء فى السنة أحكام لم ينص عليها فى الكتاب تفصيلا فى أبواب المعاملات، وآداب وأخلاق، وفضائل ينتظم بها أمر الناس فى الحياة أُثرت عنه صلى الله عليه وسلم وأمرنا الله تعالى بالتأسى به فيها كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ فيصير العبد الطائع المقتدى بالحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم محبوباً لله لمحبته لحبيبه .

وما أحسن قول مجنون ليلى :

رأى ليلى فاعرض عن سواها محب لا يرى حسناً سواها
لقد ظفرت يداه ونال ملكا إذا كانت تراه كما يراها

وقال تعالى : ﴿ أطيعوا الله والرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم عام فى كل ما أمر به ونهى عنه كما فى الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » . قيل : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى » وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وقال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ .

فقد أمر الله تعالى فى كتابه باتباع سنة نبيه إيجاباً وتكليفاً فلا يصح الإيمان إلا باتباعه . وإنكار العمل بالسنن كفر لأنه إنكار لما فى القرآن.

وهذا عنى المسلمون بالأحاديث من عهد الصحابة إلى يومنا هذا فدونوها كما قدمنا وتناقلوها رواية وكتابة وبحثوها دراية على أبلغ وجه فى الحفظ والضبط والتحرير والتمحيص فلا يغض من قدر السنة ويجافيها إلا ضعيف الإيمان بصاحبها، خارج عن جماعة المسلمين فى منهاجهم وعقيدتهم بل جاهل بالإسلام أو عدو له مبين .

٢١ — تنبيـــه

كما أنه لابد لمن يريد استنباط الأحكام الشرعية من الأصلين الكتاب والسنة من الإحاطة بهما على الوجه المبين فى علم أصول الفقه لابد مع ذلك من التمكن من اللغة العربية الفصحى وأساليبها البلاغية وعلومها المعروفة فإنها العدة الضرورية لفهم الكتاب العربى المبين البالغ فى علو أساليبه وطرائق بيانه حد الإعجاز والسنن المأثورة عن أفصح ناطق بالضاد وعن أصحابه أهل السنن وأئمة البيان والبلاغة .

ولا يجوز لمن فقد هذه الوسائل كلا أو بعضاً أن يتصدى لهذا المقام الخطير فيضل ويضل ويأثم الإثم الكبير .

٢٢ — فتنة ترجمة القرآن الحرفية

فتنة نائمة لعن الله من أيقظها . هذى بها بعض من لا يقدر القرآن حق قدره ولا يؤمن بإعجازه فأخذ يترجم القرآن بإبدال لفظ بلفظ من اللغة المترجم بها وزعم ذلك ترجمة مماثلة للقرآن تحكيه وتؤدى ما يؤديه ، وهو زعم باطل بداهة فإنها قاصرة عن الوفاء بمعانيه ومقاصده ومراميه مجردة من خصائصه البلاغية وأسرار إعجازه خالية من الروعة والجلال فأين البيان من البيان، وأين البلاغة والإعجاز فى هذا الهذيان؟؟ وقد أعجز الله منزل الكتاب عامة الخلق

عن الإتيان بمثله ولو بلغة أخرى فقال : ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ .

ولهذا اتفق العلماء على عدم إمكان ترجمة القرآن ترجمة حرفية تماثله وتؤدى معانيه ومقاصده وتحمل أسراره وخصائصه ، وما أتى به المجترئون فى هذه التراجم بعيد كل البعد عن القرآن بل عبث ظاهر بقدسيته ، وكأنى بهم يقصدون بتراجمهم الاستغناء بها عن القرآن وتقلص ظله وانتهاك حرمته وحرمان الناظرين فيها من شهود روعته وجمال أسلوبه وقدسية بيانه وجلاله المهيب .

وقال إمام الزمن الحبيب الجهبذ أحمد بن حسن العطاس رحمه الله : إن كلام الله وكلام رسوله موضوع لمخاطبة القلوب والقوالب والأشباح والأرواح والصور والمعانى وجاءوا ليترجموا القرآن بعد باللغة الجاوية والهندية وغيرها والله تعالى يقول : ﴿قرآناً عربيا غير ذى عوج﴾ مشيرا بذلك إلى وجود العوج فى كلام البشر مهما بلغوا من الكمال دون كلام الله تعالى .

* * *

أما الترجمة الحرفية بدون المثل فهى وإن كانت أقل خطراً من السابقة لاتفى أيضاً بالمعانى المرادة من الآيات ولا تحمل الخصائص البلاغية وأسرار الإعجاز القرآنى وفيها كثير من الأخطار السابقة .

* * *

فمن أراد ترجمة القرآن حرفيا فإنما أراد تغيير إعجازه وتبديل مقاصده وهدم عربيته التى شاءها الله تعالى وقامت بها الجامعة الإسلامية العربية ، وما سمعنا عن السلف منذ عصر النبوة فما بعده تعرضهم لهذه الترجمة إبقاء على جلال القرآن وخصائصه ولغته التى نزل بها من عند الله تعالى على قلب سيد المرسلين بلسان عربى مبين .

ولذلك لما رام بعض الناس فى مصر ترجمة القرآن هذه الترجمة قامت عليه قيامة العلماء وتناوشته أقلام النقد من كل صوب[١] .

ولا يظن أحد أن الترجمة الحرفية ضرورية لتبليغ الدعوة الإسلامية ولو كان الأمر كذلك لعمل بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو مرسل إلى العرب والعجم جميعاً ولنص القرآن على طلبها ولقام بها العلماء فى الصدر الأول حين تبليغ الدعوة ، وإنما المطلوب شرعاً تبليغ أحكام الإسلام وتعاليمه ومحاسنه ونشر أعلام التوحيد ودلائله كما يشير إليه القرآن والسنة النبوية ولذلك لم يقدم على هذه الترجمة أحد فى تلك العصور الزاهرة .

* * *

أما ترجمة معانى القرآن بأى لغة وترجمة أقوال ثقات المفسرين فهى مطلوبة ممن يحسن الترجمة على الوجه الذى لايخل بالمقصود ليعرف بها من يجهل العربية أولا يحسنها من أهل اللغات الأخرى حقيقة الدعوة الإسلامية وماجاء فيها من معانى الآيات القرآنية .

وذلك ما جرى عليه المسلمون منذ تصدى العلماء لتفسير القرآن .

٢٣ ــ التهاون برتب الدين

ومما يلحق بهذه الفتنة وينافى التمسك بالأحكام والآداب الشرعية المندرجة فى سلك العبادة الموفية بحق الألوهية تسور بعض المتوسمين فى بعض البلاد منصب الفتوى الدينية وحل مشاكلها المتجددة وهم لم يلموا بقواعد الأصول ولم يدرسوا الفقه على شيخ محقق فى كتبه المعروفة ولم يحظوا بشهادة ولا إجازة من أهلها فى

(١) وللعلامة المحقق الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى المالكى شيخ شيوخ الأزهر الشريف رحمه الله رسالة قيمة فى الرد عليه وتبيان حكم الترجمة الحرفية وأنها باطلة وترجمة المعانى وإنها جائزة فراجعها إن شئت .

الاقراء فضلا عن الإفتاء بل لو وكلت إلى أحدهم قراءة آية أو حديث أو عبارة قد لايحسن قراءتها ولا إعرابها فضلا عن تحليل معانيها فكيف الاستدلال بها، بينما ترى المتصدرين للفتوى فى بلاد الإسلام الأخرى المأهولة بالعلم لاينالون تلك المرتبة إلا بعد ممارستهم للعلوم الشرعية وعرضهم على محك الاختبار والامتحان واستشارة أولى النظر فيهم وشهادتهم لهم بالأهلية فهناك يرتبهم الحاكم وينتظم بهم شمل الشريعة ويتفيأ الناس ظل عدالتها .

وترى حكام القوانين الأخرى لايرشحون للقضاء بها حتى يفنوا جل شبابهم فى الدراسة والبحث ولايكفى ذلك فى ترشيحهم حتى ينالوا شهادة الخبراء بالكفاية ، وهذا فيما هو من نتيجة آراء الرجال فما بالك فى الشريعة المطهرة التى هى من وحى الله تعالى .

فهل تدرى كيف يولون فى منصب الافتاء فى هذه الناحية ، إنهم يلتقطون المفتى من الطريق السابلة ويسندون إليه من أمر الشريعة مالا يخطر له على بال ، فيخبط خبط عشواء ويركب متن عمياء ويأتى بالفواقر التى لايرقع خرقها ولا يسد ثلمها وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول: « إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

وفى هذا الحديث غاية التحذير من استفتاء الجاهل والأخذ بقوله ، وغاية الوعيد لمن أفتى بغير علم ، والتسجيل عليه بأنه ضال مضل ، ولو علم هؤلاء الغواة بخطورة موقفهم وإشرافهم على شفير جهنم ، لانكفوا عن هذا الموقف الرهيب .

عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى

هذا وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول .

وعن الشعبى والحسن وأبى حصين التابعين قالوا : إن إحدكم يفتى فى المسألة ولو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر .

وقد مثل الإمام الغزالى لمثل هؤلاء المغرورين بعجوز سمعت أن رجال الحرب أثبتت أساميهم فى ديوان السلطان فلبست الدرع وحملت السلاح ونهضت إلى مجلس السلطان فأمر باختبارها وتعريتها عن السلاح وتجربتها فى القتال والمبارزة ، فلما وقع المغفر عن رأسها وخلع الدرع عن بدنها انكشفت عن عجوز فقيل لها : هذا استهانة بالملك فتؤخذ وتقدم للنكال — ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم .

٢٤ — الكفر والجحود

الآن وقد أتينا على طرف مما يجب معرفته من مباحث التوحيد والإيمان، ينبغى أن نشير إلى طرف مما يتعلق بضدها وهو الكفر والجحود « وبضدها تتميز الأشياء » وفى بيانه تبصرة للناظرين وتحذير من الشر والفتنة ووقاية من غضب الله وعقابه فنقول :

إن الكفر هو الجهل الأكبر والظلم الأشنع والتغطية على أصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والخروج عن سبيلها ، فأى جهل أدهى وأمرّ من جهل من لا يعرف ربه ولا يوحده ويجعل له من خلقه شريكا ونداً ، كيف لا يعرف مَن خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره وسوّاه وأودع فيه العقل وقوة الإلهام ويأبى أن يؤمن بآياته البينات ويذعن للحق المبين .

يشاهد فى كل ناحية من نواحى هذا الكون جميع الأشياء تنادى بلسان حالها على ما فى خلقها وصنعها من براعة وإبداع ثم لا يهديه عقله إلى معرفة ذلك

الخالق العظيم القدير الحكيم الذى أبدعها وأخرجها من العدم إلى الوجود .

من الذى أوجد المعادن وأودع الخواص فيها وفى الأحجار والأشجار وركب الفحم والهيدروجين والأكسوجين والآزوت والصوديوم والكلسيوم وغيرها من المواد التى لا حياة لها ولا عقل وجعلها قواما لكائنات حية وذوات منافع عظمى فمتى يهتدى هذا المطموس القلب إلى العلم الصحيح والعقل الرجيح ؟ وقد تغشى بظلمة الجهل فى أول أمره وتغطى بشملة الكفر طول عمره وخالف فطرة الإسلام المفطور عليها بقلبه وقالبه وجوارحه لغمرها بظلمات الخضوع والعبادة لغير الله وفيه وفى أمثاله يقول الإمام الحداد :

وتثبط المتشككون وكأنهم ليسوا هنا
سحقاً لمن يشك فى الحق وقد تبينا

فمن أظلم ممن يقضى حياته ظالماً كل شىء حتى نفسه وجوارحه وعقله وسوف تشهد عليه بإجرامه وسوء تصرفه فى محكمة الله العادلة حتى الأرض التى مشى عليها وسكن على ظهرها عاصيا لله وصدق الله اذ يقول ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ أى لأنفسهم ولغيرهم ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

جحد الكافر النعم التى غمره الله بها من كل جانب وسخرها له ومكنه من استخدامها فاستخدم عقله فى غير مرضاة الله واستهان بمقام ربه فكان كمن أعطى سيفاً صقيلا ليتجمل به فى المعارض ويضرب به رؤوس الأعداء ويقيم به شوكة الأمن والعدل فذهب به إلى الأحجار وأكوام التراب والأقذار وأخذ يضربها بحده يمنة ويسرة فهل أدل على حمقه وهوسه من فعله هذا ؟ !

بينما نراه يحكم بالكنود والكفران على من تناسى ما عليه لصاحبه من

معروف ويرمى بالبغى والتمرد على الحكومة موظفاً يخالف مصالحها أو رعوياً يتعدى قانونها فقل لى بالله هل هناك بغى أو كفر أعظم من كفر من لا يؤمن بالله الذى خلقه ورزقه وعلمه وأنطقه ويأبى أن يقر له بالألوهية وقد يشرك معه أحداً من خلقه ويعرض عن توحيده وطاعته وامتثال أمره، ولن يضر الله بذلك شيئاً وإنما بغيه وكفره على نفسه ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾.

٢٥ ـ ذوو الكفر كثيرون

وأشد الكافرين عتياً (الملاحدة الدهريون) الغارقون فى غيابات الجحود المطبوع على قلوبهم وجباههم بطابع الشقاء والكنود (كهؤلاء الشيوعيين) الذين لا يقتصرون على جحود الخالق وإنكار الرسل وما أتوا به بل يتعدون إلى الإيقاع بالمؤمنين عتواً وعداوة، وإغراقا فى الكفر والقساوة. ويقذفون دينهم بكلمات يرتجف القلب من ذكرها خطراً ويرتعد القلم من تسطيرها حذراً.

ومنهم (المشركون) الذين يجعلون مع الله إلها آخر ومنهم (الذين ينسبون له أولاداً وصاحبة).

ومنهم (الحلولية) الذين يزعمون أن الله يحل فى بعض الأجسام فيجعلون ذلك الجسم إلها يعبدونه ويحبونه كحب الله ويصنعون له صوراً وتماثيل يحنون أمامها رؤسهم ويركعون لها ويسجدون.

ذكر ابن كثير فى تفسيره: قال يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون. نعبد الله وعزيرا، فيقال لهم خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون؟ فيقولون نعبد الله والمسيح، فيقال لهم خذوا

ذات الشمال، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون، ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون فيقال خذوا ذات الشمال قال أبو نضرة فينطلقون أسرع من الطير قال أبو العلا: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم ما كنتم تعبدون؟ فيقولون كنا نعبد الله فيقال لهم هل تعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال لهم فكيف تعرفونه ولم تروه فيقولون نعلم أنه لا عدل له قال فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجى المؤمنين.

٢٦ ـ أنواع الشرك

ولما كان الشرك يجامع الكفر فى ستر الحق المبين وكان منه أكبر يخرج صاحبه عن الملة وأصغر لا يخرج صاحبه عن أهل القبلة كالرياء وبعض المعاصى التى أطلق عليها اسم الشرك حسن إيراد ما ذكره بعض المحققين فى الشرك حيث قال:

ثم إن أنواعه والعياذ بالله ستة:

الأول: شرك استقلال وهو إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس.

الثانى: شرك تبعيض كشرك النصارى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة والآخران عيسى وأمه.

الثالث: شرك تقريب وهو عبادة غير الله ليقرب إلى الله زلفى، كشرك متقدمى العرب حين عبدوا الأحجار وقالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

الرابع: شرك تقليد وهو عبادة غير الله تبعا كشرك الجاهلية (قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).

الخامس : شرك الأسباب كشرك الفلاسفة والطبائعيين ومن تبعهم على ذلك .

السادس : شرك الأغراض وهو العمل لغير الله .

فحكم الأربعة الأول الكفر بالإجماع ، وحكم السادس المعصية من غير كفر، وحكم الخامس التفصيل فمن قال فى الأسباب العادية إنها مؤثرة بطبائعها كالنار فى الإحراق والماء فى الرى والطعام فى الشبع والضرب فى المضروب فهو كافر، ومن اعتقد أنها تؤثر بقوة أودعها الله تعالى فيها فهو مبتدع .

* * *

ومنهم (**طائفة إباحية**) تحسب نفسها فى عداد المسلمين وهى فى واقعها تنابذ الإسلام وتجافى تعاليمه عقيدة وعملا وتباهى بالتشبه بأعداء الإسلام فى عامة أمورهم وسائر عاداتهم ، بل تغالى فى التشبه بهم فيما حرمه الإسلام قطعا كبيع الخمر وشربه وأكل لحم الخنزير ، وليس لها من العلاقة بالإسلام إلا التلفظ بالشهادتين مجاراة وتقليداً للمسلمين مع استبطان مايضادهما فى كل حال .

وهؤلاء لاتنفعهم كلمة التوحيد مهما قالوها ماداموا على الجحود القلبى والانكار العملى إلا أن يتوبوا إلى الله مما اجترحوا ويثوبوا إلى الهدى والرشد فيعتقدوا معناها يقناً وصدقاً ويعملوا بموجبها حقاً فعند ذلك يقبل الله توبتهم والله تعالى غفور رحيم .

* * *

ومنهم (**طائفة القاديانية**) وهم أشد بلاء على الإسلام من كثير من الطوائف المارقة الضالة وهم أتباع الدجال اللعين أحمد غلام المرزا صنيعة الانكليز ويدهم المدسوسة الذى أدعى الألوهية والنبوة والمسيحية والمهدوية والتجديد والإسلام فى إطار واحد فما هذا التلاعب والفتون ، وقد أجمع المسلمون على أن من ادعى

النبوة بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر عنيد ، وقد ادّعاها مسيلمة الكذاب لعنه الله وسجاح المرأة والأسود العنسى وغيرهم فأخزاهم الله وفضحهم وذلك قبل انتشار الإسلام . أما اليوم وقد تعاقبت الأجيال على عقيدة الإسلام وأصبح من الضرورى اعتقاد أن محمداً خاتم النبيين كما نطق به القرآن وبينته السنة فيأتى هذا اللعين مهاجماً نبوة خاتم الأنبياء وآخرهم محاولا كسر ختمها المنيع ، ونقض لبنتها الأخيرة متحدياً بذلك العالم الإسلامى بكفره ودجله وتسويلات شيطانه كائداً بذلك الإسلام ناصراً لأعدائه فى كل مقام بل هو ألعن وأخبث من مسيلمة الكذاب ، وغيره ممن ادعى النبوة لأنه تظاهر بالإسلام فاستخف أوباشا كتب الله عليهم الشقاوة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وساعدتهم على ذلك مناسبات شتى وأصابع خفية ، ونشرات تخرج من أوكار اليهود ومباءات كيد الإسلام .

وقد اتخذ لهم ذلك اللعين بدل البيت الحرام محجاً ومشاعر فى بلدة (قاديان) يريد بذلك طمس معالم الدين وجرح عواطف المسلمين وإرضاء سادته الإنكليز وأعوانهم من الخائنين كما هى ماثلة إلى الآن تفضح نفسها ، ويكفى فى دحضهم أنهم خالفوا صريح الكتاب والسنة وما اجتمعت عليه الأمة كما هو ثابت فى رسائل دجّالهم اللعين ونشراتهم المطبوعة ، بل وأجمع المسلمون فى عصرنا هذا على أن فرقة القاديانية مرتدة كافرة ليست من الإسلام ولا من المسلمين فى شىء وصدرت ضدهم بذلك أحكام مسجلة واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار .

ولما انكشف للعالم الإسلامى عوارهم ولصق بجباههم ومن اتبعهم عارهم، عمدوا إلى النواحى الحديثة العهد بالإسلام « كيوغندا » فروّجوا فيها كفرهم وضلالهم وبنوا لذلك مساجد هى للكفر مراصد وأصدروا صحفا

ونشرات عنوانها إسلامى وباطنها الضلال والكفر وطبعوا تفسيراً للقرآن بالأحرف اللاتينية مملوءاً بالدسائس على مقتضى نحلتهم ولم يعلموا أن للدين حافظا وأن وراء الأشبال ليوثا تحميها وأن فى أولئك المستجدين فى الإسلام من هم أشد غيرة على دينهم وتمسكا به ممن توارثوا الإسلام عن جدودهم، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وانخرمت عهودهم.

ولقد رأوا كيف انتدب لهم شيخ من علماء بوغندا فألجمهم بالحجج الدامغة يوم تحدوه بالمناظرة وضربوا لها موعدا معلوما فحضر وحضر الجم الغفير من المسلمين وغيرهم، ولكن سرعان ما تقهقر أولئك المارقون ولاذوا بالفرار، وسجلت عليهم ذلك اليوم فضيحة الأبد والعار. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

٢٧ — جريمة الإلحاد فى الدين

ومما يتفرع من الكفر ويلازمه فى حدود كثيرة الإلحادُ فى دين الله وهو كما يقتضيه لفظه الميل والانحراف عن جادة الحق إلى الباطل اعتقادا وعملا، والتهاون والاستخفاف بما تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، يقال: ألحد إلحادا إذا مال عن القصد والاستقامة وألحد فى دين الله وأسمائه وصفاته. جادعن الحق فيها قال تعالى (إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا) وقال: (وذروا الذين يلحدون فى آياتنا سيجزون ما كانوا يعملون) فإلحادهم فى الأسماء اشتقاقهم لأصنامهم أعلاما من أسماء الله تعالى كاللات من لفظ الله والعزى من العزيز، وإلحادهم فى الآيات تكذيب أنها من عند الله كما قالوا (إنما يعلمه بشر) أو صرفها عن معانيها الجلية بضروب من التأويلات الفاسدة، وإلحادهم فى الصفات كإطلاق وصف الربوبية والألوهية من صفات الحق التى لاتنسب إلا إليه على غيره كما حكى القرآن عن اليهود والنصارى (وقالت اليهود عزير ابن الله

وقالت النصارى المسيح ابن الله) وقال (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله).

ومثلهم من جرى على شاكلتهم كالقاديانية والبهائية، وهذا إلحاد مكشوف ينادى على نفسه بالبوار وأن أصحابه كفار من أهل النار.

٢٨ — أنواع من الإلحاد

(١) ومن الإلحاد ما درج عليه بعض الفرق الضالة من تأويل اسم الصلاة والزكاة والصوم والحج والجنة والنار ونحو ذلك مما جاء فى القرآن والسنة بتأويلات باطلة مضادة لما قصده الشارع من معانى هذه الأسماء، ومانعة من العمل بها كما أراد وأمر. وتأويل آيات القرآن بتأويلات يأباها المأثور من تفسيرها وتأباها بلاغته والقواعد الشرعية العامة بل تأباها العقول السليمة. كما أوضح ذلك ثقات المؤرخين فيما رووه عن الفرق الضالة كالبغدادي فى الفرق بين الفرق، وابن حزم فى كتاب الملل والنحل وغيرهما.

ومن الملاحدة الإسماعيلية والباطنية والقرامطة وغلاة الشيعة وكلهم مارقون عن الإسلام مروقا ظاهراً لاشك فيه.

وأغلب هذه الفرق حين عجزوا عن تحريف القرآن وتبديله كما حرفت الكتب السماوية السابقة بأيدى الأحبار والرهبان فلم يستطيعوا أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه آية أو كلمة أو حرفا لضمان الله تعالى حفظه من ذلك بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لجئوا إلى تأويله حسب أهوائهم تلك التأويلات الباطلة كيداً للاسلام والمسلمين وابتغاء الفتنة فى الدين ولكن الله لايهدى كيد الخائنين فقد قيض الله تعالى لدينه وشريعته وكتابه وأحاديث رسوله أئمة ثقات فى كل قرن نفوا عن كل ذلك زيف المبطلين وتحريف الغالين

بما بحثوه ودونوه وأوضحوه ونقلوه عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم وعن أصحابه والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما حققوه من المباحث اللغوية والحقائق الشرعية وبما محّصوه من الأحاديث النبوية تمحيصاً وافياً دقيقاً بذلوا فيه أقصى الجهد والطاقة فكانت علومهم وأعمالهم نبراس هداية ، ومصباح نور أضاء العالم الإسلامى كله وأنار الطريق لمن يقصد العلم والعمل ومعرفة كتاب الله والأحاديث النبوية ، وكان ذلك حجة داحضة لمزاعم أولئك المحرفين المأوِّلين .

فليعتمد المسلمون فى دينهم وفى العمل بشريعتهم وفى فهم نصوصها وأحكامها على ما أوضحه هؤلاء الأئمة وبينوه .

وليحذر المسلمون أشد الحذر من أولئك المبتدعين المارقين وتأويلاتهم الزائفة التى ينشرونها بين العامة فإنها جميعها فتن وضلالات .

(٢) ومن الإلحاد مادرج عليه حديثا بعض الكاتبين فى التفسير ، خالوا فتخيلوا أنهم على حظ من العلم يتيح لهم تفسير القرآن على نحو جديد لم يعرفه القدامى من المفسرين ولقبوا أنفسهم بالمجددين فأولوا سجود الشمس بدورانها ، والملائكة والجن بقوى مسخرة ، والطير الأبابيل بمرض الجدرى ، ونحو ذلك بحجة أنهم لم يبصروا سجود الشمس ولا وجود الملائكة والجن ولا هذا الطير فى عالم الشهادة ومادام الأمر كذلك يجب صرف الكلام عن ظاهره وحمله على هذه المعانى المزعومة التى لم تتسع عقولهم لغيرها .

وغاب عنهم أن عدم رؤية الشىء بالحاسة لاينفى وجوده وكم فى الوجود من أشياء لاترى بالعين وإنما ترى آثارها كالأرواح ، والكهرباء ، والطاقات ونحوها مما وراء المادة .

كما غاب عنهم ماقاله أئمة التفسير فى قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) « آية ٦ الرحمن » وقوله تعالى : (ولله يسجد مافى السموات ومافى

الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) « آية ٤٩ النحل » ، وقوله تعالى : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) « آية ١٥ الرعد » وماجاء من الآيات والأحاديث فى عالم الملائكة وعالم الجن وماقاله المفسرون عن الملائكة وحقيقتهم والجن وحقيقتهم وكلام الملائكة مع ربهم والجن مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع بعضهم البعض ، وعن الطير الأبابيل فى سورة الفيل وفيه مايشفى العلة ويروى الغلة ويريح من ذلك العناء ، وكأنى بهؤلاء يجحدون وجود الملائكة والجن فى العالم وذلك بريد الكفر الصريح .

٢٩ — تحذير من المجازفة بالتكفير

واعلم أن واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابد فى أدائه من الحكمة والموعظة الحسنة وإذا اقتضى الأمر المجادلة يجب أن تكون بالتى هى أحسن كما قال : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وذلك أدعى إلى القبول وأقرب للحصول على المأمول ومخالفته خطأ وحماقة .

فإذا دعوت مسلماً يصلى ، ويؤدى فرائض الله ، ويجتنب محارمه وينشر دعوته ، ويشيد مساجده ، ويقيم معاهده ، إلى أمر تراه حقاً ويراه هو على خلافك ، والرأى فيه بين العلماء مختلف قديما إقراراً وإنكاراً فلم يطاوعك فى رأيك فرميته بالكفر لمجرد مخالفته لرأيك فقد قارفت عظيمة نكراء ، وأتيت أمراً إدًّا نهاك عنه الله ودعاك إلى الأخذ فيه بالحكمة والحسنى .

وقد انعقد الإجماع على منع تكفير أحد من أهل القبلة إلا بما فيه نفى الصانع القادر جل وعلا أو شرك جلى لا يحتمل التأويل أو إنكار النبوة أو إنكار

ما علم من الدين بالضرورة أو إنكار متواتر أو مجمع عليه ضرورة من الدين.

* * *

والمعلوم من الدين ضرورة كالتوحيد والنبوات وختم الرسالة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والبعث فى اليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار يكفر جاحده. ولا يعذر أحد من المسلمين بالجهل به إلا من كان حديث عهد بالإسلام فإنه يعذر إلى أن يتعلمه ثم لا يعذر بعد.

والمتواتر الخبر الذى يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم إما من حيث الإسناد كحديث: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وإما من حيث الطبقة كتواتر القرآن فإنه تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً درساً وتلاوة وحفظاً وتلقاه الكافة عن الكافة طبقة عن طبقة فلا يحتاج إلى إسناد.

وقد يكون تواتر عمل وتوارث كتواتر العمل على شىء من عصر النبوة إلى الآن، أو تواتر علم كتواتر المعجزات فإن مفرداتها وإن كان بعضها آحاداً لكن القدر المشترك منها متواتر قطعاً فى علم كل إنسان مسلم.

* * *

وإن الحكم على المسلم بالكفر فى غير هذه المواطن التى بيناها أمر خطير وفى الحديث «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» (رواه البخارى عن أبى هريرة).

ولا يصح صدوره إلا ممن عرف بنور الشريعة مداخل الكفر ومخارجه والحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان فى حكم الشريعة الغراء.

فلا يجوز لأى إنسان الركض فى هذا الميدان والتكفير بالأوهام والمظان

دون تثبت ويقين وعلم راسخ متين وإلا اختلط سيلها بالأبطح ولم يبق مسلم على وجه الأرض إلا القليل.

كما لا يجوز التكفير بارتكاب المعاصى مع الإيمان والإقرار بالشهادتين وفى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب ولا نخرجه عن الإسلام بالعمل، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار» (أخرجه أبو داود).

وكان إمام الحرمين يقول لو قيل لنا فصلوا ما يقتضى التكفير من العبارات مما لا يقتضى لقلنا هذا طمع فى غير مطمع فإن هذا بعيد المدرك وعر المسالك يستمد من أصول التوحيد ومن لم يحط علماً بنهايات الحقائق لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق.

لذلك نحذر كل التحذير من المجازفة بالتكفير فى غير المواطن السابق بيانها لأنه جد خطير، والله الهادى إلى سواء السبيل وإليه المصير.

٣٠ — حرمة المسلم ومكانته

واعلم أن الإسلام جامعة كبرى للمسلمين تربط الشرقى منهم بالغربى والأسود بالأحمر جمعت أوزاعه رابطته وألفت بين أشتاتهم أخوته فكانوا به كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وكالبنيان يشد بعضه بعضا. تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم، ويهتم القاضى منهم بالدانى، ويفرح كل منهم لما نال إخوانه من خير وهناء، ويحزن لما نابهم من شر وعناء، ويدعو كل واحد لإخوانه بظهر الغيب وفى الجامع وعلى درج المنابر، ويدعو على أعداء الإسلام من كل ع وفاجر ومفسد وكافر.

وهو خير شعار للمسلم به يشرف ويعتز فى كل موطن ويغضب أشد الغضب إن غمز إسلامه أو مسَّ دينه ويبذل فى صونه وحمايته نفسه ونفيسه لأنه أعز جوهر لديه وأعظم نعمة منَّ الله بها عليه كما قيل :

نحن فى روح وراحة وسرور واستراحه
نعمة الإسلام أعلى نعمة حلت بساحه

ممثلة فى كلمتى الشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، معصوم بها دمه وماله ، سعيد بها حاله ومآله ، مرعية بها حقوقه وحدوده ، نافذة بها عقوده وعهوده .

لهذا وجب على المسلمين الاتحاد والتآلف والتعاون والتناصر والوقوف صفاً واحداً فى وجه أعداء الإسلام وكائديه ومبتغى الشر لأهله ، والتضحية بالنفوس والأموال فى سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز الإسلام وأهله فى كل مكان .

٣١ - سباب المسلم فسوق وقتاله كفر

ولا جل ما بينا كانت كراهة المسلمين محرمة ومقاطعتهم ومدابرتهم محرمة وكان سباب المسلم فسوقاً وقتاله كفراً إذا استحل .

وكفى رادعا فى هذا الباب حديث سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه فى سريته إلى بنى جذيمة يدعوهم إلى الإسلام . فلما انتهى إليهم تلقوه فقال لهم أسلموا . فقالوا نحن قوم مسلمون . قال: فالقوا سلاحكم وانزلوا قالوا لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل ما نحن بآمنين لك ولا لمن معك قال خالد فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا فنزلت فرقة منهم وتفرقت بقية القوم ، وفى رواية : انتهى خالد إلى القوم فتلقوه فقال لهم ما أنتم أى : أمسلمون ! أم كفار قالوا مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنينا المساجد فى ساحتنا وأذنا فيها . وفى لفظ لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا صبأنا صبأنا: قال فما بال

السلاح عليكم قالوا إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح قال فضعوا السلاح فوضعوا فقال استأسروا فأمر بعضهم فكتف بعضا وفرقهم فى أصحابه فلما كان السحر نادى منادى خالد من كان معه أسير فليقتله فقتل بنو سليم من كان معهم وامتنع المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وأرسلوا أسراهم فلما بلغ النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل خالد: قال: اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد. أى قال ذلك مرتين .

وقد يقال إن سيدنا خالدا فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام وإنما أنكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم العجلة وعدم التثبت فى أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا . وقد قال عليه الصلاة والسلام « نعم عبد الله أخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على الكافرين والمنافقين » :

وكذلك قصة سيدنا أسامة بن زيد حِب رسول الله وابن حِبه فيما رواه عنه البخارى عن أبى ظبيان قال : سمعت أسامة بن زيد يقول : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال لا إله إلا الله فكف الأنصارى عنه وطعنته برمحى حتى قتلته فلما قدمنا بلغ النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ قلت: كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت ذلك اليوم ، وفى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق أم كاذب ، فقال أسامة لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله » .

وقد سئل على رضى الله عنه عن المخالفين له من الفرق أكفار هم قال لا إنهم من الكفر فروا ، فقيل أمنافقون هم ؟ فقال لا إن المنافقين لا يذكرون الله إلا

قليلا وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، فقيل : أى شىء هم ؟ قال : قوم أصابتهم الفتنة فعموا وصموا .

ونعم ما قاله بعض الأئمة العارفين فى معيار المؤمن : إن الصفات كلها المحمودة والمذمومة فى طبع كل إنسان لكن الصفات المحمودة فى حق المؤمن مطلقة والصفات المذمومة فى حقه مقيدة .

فإذا وصف المؤمن مثلا بالإيمان فهو الإيمان بالله ورسوله ، وإن وصف بالشكر فهو الشكر لله ، وهكذا فى سائر الصفات المحمودة . وإن وصف بالصفات المذمومة فهى مقيدة ، فإذا قلت كافر مثلا فمعناه كافر بالجبت والطاغوت ، وإن قلت شحيح فهو شحيح بدينه وهكذا سائر الصفات المذمومة إذا وصفت بها مؤمنا قيدها ، وأما الكافر فهو بعكس المؤمن فالصفات المذمومة فى حقه مطلقة والصفات المحمودة فى حقه مقيدة ، فإذا قلت كافر فمعناه كافر بالله تعالى ، وإن قلت شحيح فهو شحيح بما أوجب الله عليه ، وإن وصفته بالأوصاف المحمودة وقلت مثلا مؤمن فهو مقيد يعنى مؤمن بالجبت والطاغوت ، وإن قلت محسن فهو محسن للشيطان وهكذا الأوصاف الحسنة إذا وصفته بها تقيدها .

٣٢ - مثل ضربه الله لكلمتى التوحيد والكفر

يقول تعالى مجده : (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

* * *

إن الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالحاضر والمعقول بالمحسوس ، فيتأكد الوقوف على الحقيقة ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك هو النهاية فى الإيضاح ، ولضرب المثل أثناء الخطاب والإرشاد أعظم وقع فى النفوس وتأثير فى القلوب ولذلك يألفه الناس ويجرى بينهم ويشيع فى أحاديثهم ألا ترى أن الترغيب فى الإيمان والتوحيد إذا كان مجرداً عن ضرب المثل لم يتأكد وقوعه فى القلب كما يتأكد إذا مثل بالنور أو بشجرة طيبة ، وإذا كرّه فى الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه فى العقول كما يتأكد إذا مثّل بالظلمة أو بشجرة خبيثة ، ولهذا المعنى ضرب الله مثلا لكلمة التوحيد والإيمان وتفرّع الأعمال منها وانبثاق الأنوار والمعارف عنها وبركتها ونموها بشجرة طيبة فى نباتها البهى وثمرها الشهى (أصلها) الذى تقوم عليه (ثابت) ضارب بعروقه فى الأرض لا تزعزعه العواصف ولا تميل به المحاولات (وفرعها) أعلاها (فى السماء) صاعد فى جو السماء نموا وحياة وزهوا ، ومع هذا (تؤتى أكلها) أثمارها (كل حين) لا ينقطع جناها كاملة حسنة (بإذن ربها) وحسن تقديره وتهيئته ، وقد فسرت فى بعض الأخبار بالنخلة لتوفر شروط التمثيل بها فى المقصود ، فكذلك كلمة التوحيد والإيمان فى قلب المؤمن طيبة فى لفظها ومعناها لما تنبىء عنه بلفظها السديد من شرف التوحيد وتورثه فى القلب من يقين يضىء زواياه فيطيب حسّه ومعناه . (أصلها) الذى تقوم عليه معرفة الله جل وعلا وإفراده بالوحدانية والعبادة وذلك الأصل بصحة بيانه وقوة برهانه (ثابت) فى أعماق القلوب ضارب بأشعة أنواره إلى قرارة اليقين والطمأنينة فيه . (وفرعها) الزهى نام صاعد إلى السماء سموقا وقربة (تؤتى) هذه الشجرة الإيمانية (أكلها) وثمارها الجنية التى تغذى الروح والجسم (كل حين) يتجدد إنتاجها ، ويتنوع جناها (بإذن ربها) وحسن توليه أعمالا صالحة وأخلاقا حسنة وعلوما نافعة .

فالمؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار ولا يزال رابحاً على مولاه . ما دامت شجرة إيمانه مخضرة وارفة الأغصان ولن يهلك على الله إلا هالك .

وقال تعالى فى كلمة الكفر والشرك . (ومثل كلمة خبيثة) فى لفظها ومعناها المزور المفترى (كشجرة خبيثة اجتثت) فى نباتها وثمرها ومثلوا لذلك بالحنظلة .

« اجتثت » قطعت عروقها واستؤصلت (من فوق الأرض) إذ هى غير ثابتة الأصل ولا نابتة الفرع بل طافية سابحة على وجه الثرى مالها من قرار كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع لانبنائه على الزور والبهتان والشرك الذى ليس له حقيقة وكيف تصح الشركة فى شىء من الوجود وهو كله فعلُ واحد قهار .

وخبث الكفر والشرك يسرى إلى حس الكافر ومعناه ولذلك صار نجساً كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) أى ذوو نجس بقدر الكفر — وفوق ذلك لا يتطهرون ولا يغتسلون من الجنابة ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم فى كل حين .

وعن ابن عباس : نجاسة أعيانهم بالكفر والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، فلا يصعد للكافر كلم ولا يتقبل منه عمل وتكون أعماله يوم القيامة هباء منثورا كما قال تعالى فى جزاء الكافرين : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) .

وقوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وهو كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، (فى الحياة الدنيا) قبل الموت بالهداية والتوفيق إلى طيب القول والعمل (وفى الآخرة) فى القبر قال عليه الصلاة والسلام: « إذا سئل المؤمن فى القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، فذلك قوله تعالى: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) (ويضل الله الظالمين) المشركين لا يهديهم إلى الجواب بالصواب فى القبر (ويفعل الله ما يشاء) من التوفيق والخذلان والتثبيت وضده علماً منه بمن يستحقهما فلا مانع لما أعطى ولا راد لما قضى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) ومن دعائه عليه الصلاة والسلام . « يا مثبت القلوب ثبت قلبى على دينك » .

٣٣ — الشهود

الشهود هو الحضور والمعاينة وعند القوم نظر خاص للبصيرة وقرب معنوى مقرون بعلم اليقين وحق اليقين ، فمن حماه الله من حجاب البعد والغفلة وتقرب إلى الله بالإحسان المذكور فى الحديث « أن تعبد الله كأنك تراه » فقد دخل حضرة الشهود وتفيأ ظلها الممدود وذاق بحاسة الوجدان طعم الإيمان ودخل جنة المعرفة المعجلة قبل جنة رضوان : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

وإنما يرتفع الحجاب عن العبد بالتحلى بالأوصاف الحميدة بعد التخلى عن أضدادها الكثيفة فيصل حينئذ إلى مشاهدة جمال الحق فى محاسن أسمائه وصفاته وبدائع صنعه ومخلوقاته والاطمئنان بذكره وشكره والتلذذ بطاعته ومناجاته والإنشراح بصريح معرفته .

قال بعض أهل الشهود : من عرف الله شهده فى كل شىء فلا يستوحش من شىء ويستأنس به كل شىء ويستأنس هو بكل شىء ويشهد معنى قوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه) عيانا ، ويفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم . أصدق كلمة قالها لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » وتشرق على قلبه لمعة من قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) ويرتفع عنه اشتباه معنى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وينطق بالحق لأن الحق يكون حينئذ سمعه وبصره ولسانه الذى ينطق به .

ولنقف فى رسالتنا هذه عند هذا الحد الأدنى من معانى الشهود لأنه مقام رفيع ومرتقى صعب يعز على أمثالنا ويصعب على أفهامنا منشداً قول سيدى الحبيب الإمام عبد الله بن علوى الحداد رحمه الله ونفع به :

بشر فؤادك بالنصيب الوافى ... من قرب ربك واسع الألطاف
الواحد الملك العظيم فُلذ به ... واشرب من التوحيد كأساً صافى
واشهد جمالا أشرقت أنواره ... فى كل شىء ظاهراً لا خافى

وقول سيدى الحبيب الإمام على بن محمد الحبشى رحمه الله ونفع به :

طف دواما بجنب تلك الخيام ... وارتشف فى الهوى كؤوس المدام
وتخلص عن السوى وتأدب ... فى مقام ما بعده من مقام
إن فى حضرة الشهود مداما ... تسلب العاشقين طيب المنام
إن فى حضرة الشهود مداما ... تدخل الشاربين بحر الهيام

* * *

ولما كان الفكر كحل البصيرة وهو كما قال السرى السقطى خير من عبادة سنة وما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتحطها فى الجنة وأيت أن اقتبس شيئا من أضوائه ينير الطريق لطالب التحقيق . فأقول :

٣٤ — الفكر

هو تصرف القلب وجولانه فى معانى الأشياء ليدرك المطلوب ، وبه يغاص على دُرِّ الحقيقة . وإذا سلم الفكر من الشوائب ورد مناهل التحقيق ، ويقال هو سراج القلب يرى به خيره وشره ومنافعه ومضاره ، وذلك لأن القلب الخالى عن الفكر خال عن النور ، كالبيت المظلم وإذا خلا عن النور لا يكون فيه إلا الجهل والغرور .

وعن ابن عباس وأبى الدرداء رضى الله عنهما : فكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الحسن بن أبى الحسن : الفكر مرآة المؤمن ينظر فيها إلى سيئاته وإلى حسناته .

وفى تفسير ابن عطية: حدثنى أبى عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائتاً فى مصر بمسجد فصليت العتمة ، فرأيت رجلا قد اضطجع مسجى بكسائه حتى أصبح وصلينا تلك الليلة وسهرنا ، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس فاستعظمت جرأته فى الصلاة بغير وضوء فلما فرغت من الصلاة خرج فتبعته لأعظه فلما دنوت منه سمعته يقول :

منسجر الجسم غائب حاضر ... منتبه القلب صامت ذاكر
منقبض فى العيون منبسط ... كذلك من كان عارفا فاكر
يبيت فى ليله أخا فكَر ... فهو مدى الدهر نائم ساهر

فانصرفت عنه . قال : فقلت إنه ممن يعبد الله بالفكر هـ .

* * *

٣٥ — أنواع الفكر

ثم إن الفكر أنواع : ففكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالصبر زهدا فيها .

وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه .

وفكر العارفين فى الآلاء والنعماء وأسرار الصفات والأسماء فيزدادون محبة للخالق جل وعلا .

وفكر العامة فى البراهين والأدلة لتحصيل التصديق (وعلا كعب من جمعها كلها) .

ومهما تيسر الفكر فهو من أشرف العبادات، إذ فيه معنى الذكر لله وزيادة التعلق والمحبة إذ لا يحب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تنكشف عظمة الله تعالى إلا بمعرفة صفاته وقدرته وعجائب أفعاله فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة .

قال الإمام الغزالى قدس الله سره ، من طال فكره فى معرفة الله وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشىء اليسير فإنه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف ما يكاد يطير به ، ويتعجب من نفسه لثباته ، لقوة فرحه وسروره .

* * *

وقال سيدى قطب الإرشاد الحبيب عبد الله بن علوى الحداد فى رسالة لمعاونة : —

وينبغى أن يكون لك ورد من التفكر كل يوم وليلة تعيّن له ساعة أو ساعات ، وأحسن الأوقات للتفكير أفرغها وأصفاها وأجداها فى حضور القلب كجوف الليل .

وقال : اعلم أن صلاح الدين والدنيا موقوف على صحة التفكر ومن أعطى حظاً منه أخذ بحظ وافر من كل خير ، وقد ورد تفكر ساعة خير من عبادة سنة . وقال على كرم الله وجهه : لا عبادة كالتفكر ، وقال بعض العارفين : الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له .

ومجارى الفكر كثيرة فمنها وهو أشرفها أن تتفكر فى عجائب مصنوعات الله الباهرة وآثار قدرته الباطنة والظاهرة وما بث من الآيات فى ملكوت الأرض والسموات ، وهذا التفكير يزيد فى معرفتك بذات الله وصفاته وأسمائه وقد حث الله عليه بقوله : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وأنت من عجائب المصنوعات فتفكر فى نفسك قال الله تعالى : (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

وينبغى أن تتفكر فى آلاء الله وأياديه التى أوصلها إليك وفى نعمه التى أسبغها عليك قال تعالى : (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) وقال تعالى (وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها) وقال تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

وثمرة هذا التفكر امتلاء القلب بمحبة الله والاشتغال بشكره باطناً وظاهراً كما يحبه ويرضاه .

وينبغى أن تتفكر فى إحاطة علم الله بك ، ونظره إليك، واطلاعه عليك، قال الله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

وقال تعالى : (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وقال تعالى : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) الآية ، وهذا التفكر ثمرته أن تستحى من الله أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك .

وينبغى أن تتفكر فى تقصيرك فى عبادة مولاك وتعرضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ، وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) ، وقال تعالى : (يا أيها

الإنسان ماغرك بربك الكريم) وقال تعالى : (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) .

وهذا التفكر يزيد فى خوفك من الله ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها ومجانبة التقصير وملازمة التشمير .

وينبغى أن تتفكر فى هذه الحياة الدنيا وكثرة أشغالها ، ووبالها ، وسرعة زوالها وفى الآخرة ونعيمها ودوامها قال الله تعالى : (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) وقال تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

وهذا التفكير يثمر لك الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة .

وينبغى أن تتفكر فى نزول الموت وحصول الحسرة والندامة بعد الفوت قال تعالى : (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون) وقال تعالى : (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولاأولادكم عن ذكر الله) إلى قوله تعالى : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) .

وفائدة هذا التفكير قصر الأمل ، وإصلاح العمل ، وإعداد الزاد ليوم المعاد .

وعليك أن تتفكر فى الأخلاق والأعمال التى وصف الله بها أولياءه ، وأعداءه وفيما أعد للفريقين فى العاجل والآجل قال الله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) وقال تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون) وقال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى

فسنيسره لليسرى) الآية وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى قوله تعالى : (لهم مغفرة ورزق كريم) وقال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية وقال تعالى : (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقال تعالى : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) إلى قوله تعالى : (ولهم عذاب مقيم) وقال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) إلى قوله تعالى : (ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) وقال تعالى : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) إلى قوله : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

وثمرة هذا التفكر محبة السعداء وحمل النفس على العمل بأعمالهم والتخلق بأخلاقهم ، وإن ذهبنا نتتبع مجارى الفكر خرجنا عن مقصودنا من الإيجاز ، وفيما أشرنا إليه كفاية لمن يفكر .

وينبغى أن تستحضر عند كل نوع من التفكر ما يناسبه من الآيات والأخبار والآثار كما أشرنا إلى ذلك عند كل نوع .

وإياك والتفكير فى ذات الله تعالى وصفاته من حيث تطلب الماهية وتعقل الكيفية فقلما ولع بذلك أحد إلا هوى فى مهاوى التعطيل أو تورط فى ورطات التشبيه ، وقد روى مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . تفكروا فى آلاء الله ولاتتفكروا فى الله فإنكم لم تقدروه حق قدره ، انتهى من رسالة المعاونة ، وهو فصل جامع ممتع .

٣٦ – أنموذج من التفكر فى الآلاء

خلق الله الإنسان مركباً من جسم وروح وجعل الجسم بطبيعته محتاجاً إلى الغذاء مما به قوام حياته ونموه وخصه بالطيبات من الرزق كالحنطة والأرز والذرة وفضلها على الشعير والقصب وأقوات البهائم وكما فضله فضل قوته ، وخلق السنبلة ذات ساق طويل فالقصبة يكون حبها قوتاً لك ، وهى تكون تبناً وأكلا للحيوان المسخر لك وكذا خلق الحنطة حباً صغاراً يسهل طحنها . ولو خلق حب الحنطة قدر البيضة والتفاحة لصعب طحنها والانتفاع بها .

وسخر لك الحيوان فخلق الأنعام مذللة لك كما قال تعالى : (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال : (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين) وسقاك مما فى بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، وأعدمها العقول لئلا تنازع أربابها وتمتنع عليهم وعوضها عن العقول بالأحاسيس الجيدة التى ربما أربت على إحساس البشر فجعل ما أعطاها من الإحساس كافياً لنيل المصالح التى تراد منها إحكاماً منه لصنعته وإتقاناً لأمر خليقته وعظم ربوبيته ، وهيأ لك الأثمار والفواكه والأزهار دانية زاهية فى أشجارها تناديك بلسان حالها تناولنى وكلنى وشم رائحتى فإنى مهيأة لك لا لغيرك (كلوا من ثمره إذا أثمر وينعه) (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)

وهكذا حكم كل شىء فى الوجود من مصنوعاته مبنى على الحكمة والإتقان لا يخلو شىء من حكمة ولا يعرى عن عبرة فتبارك الله أحسن الخالقين : (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

* * *

٣٧ – تذكرة ومجاهدة

قد ينتهى بالمؤمن الفكر إلى غوامض فى التوحيد وأغواره ، وأسراره الغيبية وحقائقه الخفية ويرى اضطراب العلماء فى آيات الصفات وأحاديثها المروية فيقف عندها باهتاً متحيراً لا يهتدى لحلها وإماطة اللثام عن وجهها ، وحينئذ ينبغى له كما قال بعض العارفين أن يفر ويلجأ إلى مولاه ويفوض علمها إليه كما هو مذهب السلف الصالح ويفكر كيف كان افتقاره فى إنشاء طينته الإنسانية إلى خلقه له وتصويره فكيف لا يكون مفتقراً فى هداية حقيقته الأصلية إلى لطفه وتنويره ولا يجعل مستند إيمانه نتائج الفكرة البشرية بل يفر من إشكاله إلى الله ورسوله ويسأل مولاه أن يمن عليه بمدد من عنده يغنيه به عن كل شىء سواه حتى لا يشهد فى ذلك إلا إياه ، ويقول رب أعوذ بك أن يكون إيمانى بك وبما أنزلت مستفاداً من فكرة مشوبة بالأوصاف النفسية أو مستنداً إلى عقل ممزوج بأمشاج من الطينة البشرية بل من نورك المبين ومددك الأعلى نور نبيك المصطفى وبركاته .

وهناك السكينة وبرد الطمأنينة ، وتلك طريقة العبد الموفق عند اضطراره وتضارب أفكاره (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى اتخذ إلى معرفته ورضاه وجواره فى جنته طريقاً معنوياً بتقوية إيمانه ويقينه بالذكر والفكر ، وحسياً بالجد فى طلب العلم النافع واعتناق الأعمال الصالحة وهو الشريعة وبالإخلاص والأدب ومجالسة أهل المعرفة وهو الطريقة فيوصله إلى برد اليقين وهو الحقيقة وذلك منتهى أمل السالكين .

قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فى هذه الآية الكريمة وعد من الرب الكريم بهداية سبله الموصلة إلى رضاه والقرب منه للمجاهدين فيه أى من أجله ولوجهه خالصاً وهذه الهداية هى نتيجة المجاهدة وميراث حسن

الإتباع وهى المكاشفة بصريح الحق والمبادأة بأشياء من عالم الغيب . وقبلها هداية البيان يشير إليه قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وهداية التوفيق المشار إليها بقوله تعالى : (يهدى الله لنوره من يشاء) .

قال سيدى الإمام الحداد :

وجاهد تشاهد واغنم الوعد بالهدى ... هدى نصُّه فى العنكبوت بآية

والمجاهدة مفاعلة بين اثنين فهى بين الإنسان ونفسه يحملها على ما ينفعها حالا ومآلا ويوجب لها الفوز والسعادة وهى تجاهده على ما تهواه بحسب جبلتها من ضد ذلك ، وبينه وبين غيره من الأعداء وأقواهم الشيطان الرجيم بالتحصن منه وبقتال الكفار ونصر الدين ورد المبطلين وقمع الظالمين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولكون المجاهدة مع النفس الأمارة بالسوء التى هى بين جنبى الإنسان أشد أعدائه كما ورد أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك كان جهادها هو الجهاد الأكبر وجهاد العدو هو الجهاد الأصغر . وجاء فى أثر :

«رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» لذلك يستعان على غلبتها وإسلاس قيادها بترويضها على أربعة أشياء : جمعها سيدى الحداد فى بيت وهو :

والنفس رُضها باعتزال دائم ... والصمت مع سهر الدجى وتجوُّع

فحرىٌّ بمن اقتصد فى الطعام بقدر القوام وفى المنام بقدر الاستجمام وفى الكلام بمقتضى المقام وفى خلطة الأنام خشية المذام أن يملك على نفسه الزمام

ويسلك بها مسلك القوم الكرام على نهج الشريعة والطريقة والحقيقة المستفادة من تلك الآية الكريمة .

* * *

٣٨ ـ الشريعة والحقيقة

ومن أحسن ما رأيت فى الكلام عليها جواباً لسيدى الإمام أبى بكر بن عبد الله العيدروس على سؤال ورد عليه من بعض الفقهاء يسأله عن الفرق بين الشريعة والحقيقة ، فرد عليه رداً كافياً أحببت نقله برمته قال رضى الله عنه :

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وهو الحامد لنفسه والمحمود ، ومنه انبعاث القصد للقاصدين وهو المقصود ، خلق لعبده إرادة بإرادته وأثبته حتى أقام عليه حجته وبإثباته له أقام عليه أمره ونهيه وجازاه على مقتضى سعيه فناداه (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وتارة أقام نفسه ونفاه فقال (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصلت الحيرة، وعميت الأبصار والبصيرة فوفق من يشاء من عباده بمكنون علمه فوقف مع الشريعة بجسمه ومع الحقيقة بقلبه .

فالعلم المتجلى على الجسم علم ظاهر وهو علم الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن وهو علم الحقيقة ، فأقام ظاهر الإسلام على أركان القائمُ بها جوارحُ الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان القائمُ بهما تصميم الجنان ولكن لما خفى عن الأسماع الحسية ما بالقلب جُعل لهما ترجمان وهو اللسان فارتبطت الشريعة بالحقيقة والحقيقة بالشريعة وبقيا كقول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

فمن هنا قال أهل الشريعة الواقفون مع العلم الخالى عن العمل ما سوى الشريعة كفر، فصدقوا من وجه وأخطئوا من وجه وقال المترسمون بألفاظ الحقيقة العارون عن التحلى بها ما سوى الحقيقة شىء فصدقوا من وجه وأخطئوا من وجه فناداهم أهل الجمع من أرباب الدعوة — أما سمعتم شاوش التوفيق على قارعة الطريق ينادى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فالإجتهاد هو الشريعة وهو تعاطى أقوال الشريعة بالأعمال ليهديه سبله وهو الحقيقة . فمن هنا لم تعرفوا الحقيقة لعدم استعمالكم الشريعة .

ويا أيها المترسمون بألفاظ الحقيقة لم تحصل لكم الهداية إلا بالاجتهاد على أوامر الشريعة واجتناب مناهيها كأنكم جاهلون ما جمع الله لعبده فى فاتحة الكتاب إذ قال له بعد أن عرفه كيف يحمده وأنه يستحق عليه الحمد بربوبيته على جميع العالمين وخص بلفظة الرب لما فيها من غاية الشفقه واللطف ثم آنسه به وعرفه به أنه له رحمن فى الدنيا ورحيم فى الاخرة فجمح به جامح الرجاء فشم منه تيه الطبع فقمعه بأنه (مالك يوم الدين) ، لأن حقيقة الملك العدل ويوم الدين يوم الجزاء فأقام له جناح الخوف والرجاء وعرفه كيف يطير بهما إليه فقال له قل (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو الشريعة فلما أقامه بالعبادة ظن أن له إرادة فكاد أن يخلد إلى الأرض بالعجب والرياء والمن عليه فأراد أن يعرفه أن طاعته من استعانته فقال له قل (وإياك نستعين) وهى الحقيقة، فعلم العبد الموفق حينئذ أن له إرادة بنفسه وأصلها من عند الله تعالى عند وارد الأمر والنهى لإقامة حدود الشريعة ، فهذا مقام الإستقامة قل الله ثم استقم مع أمره مع اعتقادك أنه لولا توفيقه السابق وهداه اللاحق لما كان حقيقة ولا إرادة فانتفى منه المنّ والعجب وبقى منه وبه وهو سر القدرة وهو أول قدم فى طريق الحقيقة وهو البقاء به والفناء عن نفسه فحينئذ رجع العبد الموفق إلى

الله ضرورة فلم يجد له إلا رضاه عليه ولا له سلم إلا بدعائه فبقى متحيراً فقال له قل (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وعلى الجملة إن الشريعة اتباعك أوامره وهو الإسلام والإيمان والحقيقة ، هى إقامتك بأمره كأنك تراه وهو يراك وهو مقام الإحسان . وإن شئت قلت الشريعة علم ومعلومها الطريقة وهى العمل وثمرتها الوصول إلى الله وهو الحقيقة، وليس الوصول بسعى الأقدام ولا بقرب المسافة وبعدها ، وإنما سعيك إليه بتوفيقه وسعيه إليك برحمته علم ذلك من علمه وجهله من جهله وتحت هذا علم وفنّ وسر خفىّ والناس فى أضغاث أحلام، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. انتهى .

---

٣٩ — كتب قيمة فى معالم السلوك

وقد شرح العلماء العارفون هذا الطريق ومعالم سلوكه فى كتبهم الحافلة وسيرتهم الماثلة بما لا مزيد عليه وأفردوا لذلك مؤلفات مشهورة أذكر منها «قوت القلوب» وإحياء علوم الدين « ورسالة القشيرى ، وعوارف المعارف». وكتاب الزهد والرقائق لابن المبارك ، وحلية أبى نعيم . ورياض الصالحين للإمام النووى ، وبستان العارفين له وما اشتملت عليه الصحاح والمسانيد من فصول الرقائق مما فى مسند الإمام أحمد وأدب البخارى ودلائل النبوة للبيهقى وكتب الإمام الشعرانى والإمام الحداد وغيرهما من كتب السير والمناقب، التى تصلح المرء بمجرد مطالعتها ، جزاهم الله عن الأمة خير الجزاء .

٤٠ ـ الله جل وعلا

(الله) علَم على الذات الواجب الوجود وما سواه فانٍ مستمد منه الوجود لم يسم به غيره كما قال تعالى (هل تعلم له سمياً) وهو الإسم الأعظم الدال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها وجميع الأسماء شارحة له وراجعة إليه ومن صفته ونعمته وإن تعددت الأسماء فالمقصود منها واحد وهو الله.

والأسماء كلها سرت فى العالم سريان الأرواح فى الأجساد فما من موجود دق أوجل، علا أو سفل، كثف أو لطف، قل أو كثر إلا وأسماء الله محيطة به حساً ومعنى واسم الألوهية جامع لجميعها، فيقال الله الرحمن الله الرحيم الله الخالق وهكذا ترجع إليه سائر الأسماء الحسنى والصفات العظمى.

ولا يتم عِقد الإسلام إلا به ولا يقبل اسمٌ عوض ولا ذكرٌ بدل عنه بأن يقال لا إله إلا الغفار أو الرحيم أو الجبار، وإنما يقال لا إله إلا الله وبذلك نطق القرآن والحديث لأنه أدل على كنه المعارف الإلهية واختص بها وهو بها أشهر وأتم وأظهر وبه سمى نفسه وتعرف به إلى خلقه وأمرهم أن يدعوه به.

وقد تزاد بآخره ميم مشددة مفتوحة عوضاً عن حرف النداء فيقال اللهم بمعنى يا الله، يدعى بذلك عند التوجه والابتهال، ولا يقال يا اللهم إلا نادراً، قال الشاعر العربى:

إنى إذا ماحدث ألما   أقول اللهم يا اللهما

والميم فى لسان العرب من علامات الجمع فتفيد تضمن مادخلت عليه لجميع الأسماء والصفات، ولذلك روى عن الحسن البصرى قوله: اللهم مجمعُ الدعاء. وعن النضر بن شميل من قال اللهم سأل الله بجميع أسمائه، وتعويض الميم من حرف النداء فى لفظ الجلالة يقتضى قوة الهمة فى الطلب والجزم به.

٤١ ـ ذكر الله تعالى

قد علم ذوو العقول السليمة أن الدنيا دار تحول وطريق سفر إلى الدار الآخرة. ولهذا سميت الحياة الدنيا أى القريبة المدة العاجلة الفناء وأول منازلها المهد وآخرها اللحد.

والغاية هى الجنة والنار. فالعمر مسافة السفر والسنين مراحله وأوقاته رأس ماله وأيامه ميوله وشهواته وأغراضه قطاع طريقه وربحه الفوز بلقاء الله والنعيم المقيم وخسارته بالحجاب عن الله والعذاب الأليم فى جهنم.

فالمؤمن العاقل يجعل أنفاسه طاعة ويقطعها بذكر الله والغافل ولو عن نفس من عمره متعرض لحسرة لانهاية لها وخسران لاتدارك له ولهذا سبق المفردون كما قال صلى الله عليه وآله وسلم سبق المفردون قالوا يارسول الله وما المفردون؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، وهم المتخلون عن الناس لذكر الله فأفردوا أنفسهم عن الخلائق والأقران لله عز وجل وتبتَّلوا إليه أى انقطعوا وتفردوا كما أحب ذلك وأمر رسوله وأتباعه بقوله (واذكر اسم ربك وتبتَّل إليه تبتيلا) تنبيها على أن الذكر الدائم إنما يتهيأ بحسن التبتل والانقطاع إليه. وقال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى تسكن وتطيب والسكون يكون باليقين كما أن الاضطراب يكون بالشك فذكر الله تسكن به قلوب المؤمنين ويسكن فيها اليقين.

والذكر هو وجدان المذكور وحضوره بالقلب والتخلص من الغفلة والنسيان بمداومة حضور القلب وإعراب اللسان والخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة.

والذكر قرين الأعمال وروحها فانظر كيف قرنه بالصلاة التى هى أفضل

العبادات وعللها به فى قوله تعالى (وأقم الصلاة لذكرى) قال الإمام الحداد من قصيدة :

واذكر إلهك ذكرا لاتفارقه … فإنما الذكر كالسلطان للقرب

والذكر ركن الطريق ومفتاح التحقيق وسلاح المريدين ومنشور الولاية قال تعالى (فاذكرونى أذكركم) وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى «أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه» وفى حديث آخر «أنا جليس من ذكرنى ، وناهيك بمن كان الله جليسه» وهذه مزية للذكر خاصة ، وهى الحضور فى الحضرة العلية والوصول إلى رتبة القرب بما عبر عنه فى الحديث بالمجالسة والمعية .

والذكر منزلة العابدين الكبرى التى منها يتزودون وفيها يتجرون وإليها دائما يترددون وقد جعل الله لسائر العبادات مقداراً وأوقاتا ، ولم يجعل للذكر قدراً ولا وقتا وأمر بالكثرة منه من غير تحديد . فقال (يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكراً كثيراً) فى جميع الأحوال بالليل والنهار فى البر والبحر والصحة والسقم والحضر والسفر والسر والعلانية ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله . وفى الصحيحين : مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره مثل الحى والميت ، وسأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أى الأعمال أفضل ؟ فقال «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله» .

وقال عليه الصلاة والسلام ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : ذكر الله» .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ما يقول عبادى قال يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فيقول هل رأونى ؟ فيقولون لا والله مارأوك فيقول فكيف لو رأونى ؟ قال يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً فيقول فما يسألون قال : يقولون يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها قال يقولون لا والله يارب مارأوها قال فيقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون ؟ قال يتعوذون من النار ، قال فيقول وهل رأوها قال يقولون لا والله مارأوها فيقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أنى قد غفرت لهم قال يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجته قال هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم» .

وهذا الحديث يدل على فضل الاجتماع للذكر والجهر به من أهل الذكر جميعاً ، لأنه قال : يذكرونك بصيغة الجمع وقال هم الجلساء أى العاقدون مجالسهم للذكر والمتحدون عليه ، ولا يتفق ذلك إلا جهراً لأن المسر بالذكر لا يقصد مجالسة غيره والذاكر لنفسه على حدة لايعد مجتمعاً مع غيره على الذكر كما يدل عليه حديث وانا معه حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم» فقابل بين السر والجهر فى قوله : ذكرنى فى نفسه أى سراً وقوله فى ملأ خير منهم أى جهراً .

وهل يكون الذكر فى الملأ إلا بالجهر علناً مع اجتماعهم عليه بصوت واحد — وفى الحديث دلالة على أن الجهر بالذكر فى الملأ من أنواع الذكر

العالية المنوه بها فى الملأ الأعلى من ربنا الجليل مع الملائكة المقربين الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون .

ووجه المناسبة لايخفى بين الذاكرين فى العالم النزيه المجبولين على الطاعة والذكر وهم الملائكة . وبين الذاكرين فى العالم الكثيف المجبولين على الفتور والغفلة وهم الآدميون ومكافأتهم على ذلك بإلحاقهم فى الرتبة بالملأ الأعلى وكفاهم بذلك شرفاً وفضلا .

٤٢ — تلاوة القرآن من أفضل الذكر

ومن أفضل الذكر الأوراد والاشتغال بتلاوة كتاب الله بل هو أفضل الأذكار بعد كلمة التوحيد إلا ما ورد مقيداً بوقت فالأفضل إشغال ذلك الوقت به قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم من « قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ماعظم الله » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « قال الله من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل مما أعطى السائلين » . وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه ، وأخرج البيهقى من حديث النعمان بن بشير « أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن » وأخرج من حديث أنس « نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن » .

ويحصل الثواب بقراءة القرآن بفهم وبغير فهم بخلاف غيره من الأذكار.

والقرآن أعظم واعظ وأشد زاجر ومخوِّف عن ارتكاب معاصى الله ومحارمه وعن الاستخفاف بالقيام بأوامر الله ونواهيه . فى بعض الآثار أن قارىء القرآن إذا ارتكب المعاصى يناديه القرآن من جوفه أين زواجرى ؟ أين

قوارعى ، أين مواعظى ، قال ميمون بن مهران رحمه الله — إن أحدكم يقرأ القرآن وهو يلعن نفسه قيل له كيف ذاك قال يقرأ ألا لعنة الله على الظالمين وهو يظلم ، ألا لعنة الله على الكاذبين وهو يكذب .

وورد أن القرآن غريب فى جوف الظالم فينبغى لكل مسلم لاسيما مريد طريق الآخرة أن يرتب له وردا من القرآن ليلا ونهاراً وإن قل مع مراعاة الترتيل والحضور لما فى ذلك من جزيل الثواب ومناجاة رب الأرباب . وأما الأئمة الذين صفت قلوبهم وانشرحت صدورهم لفهم خطاب الله تعالى ولذة مناجاته فلهم فى تلاوة القرآن ليلا ونهاراً المورد الأسنى والمشرب الأعذب الأهنى ، فكان القرآن العظيم ربيع قلوبهم وجلاء كروبهم وخير ماينتعمون به فى الدنيا وبلغ من إمعانهم فى تلاوته أن منهم من يختم فى اليوم والليلة ثمان ختمات أربعاً بالليل وأربعا بالنهار ومنهم من يختم فى كل أسبوع ختمة وفى كل شهر على اختلاف الهمم والمواطن ، عقدوا له الحزوب والحلقات ووقفوا على إحيائها ريعا وصدقات وشادوا لتعليمه معاهد ومعالم وجعلوا لختمه أعياداً ومواسم ، وتنافسوا فى كتابته بالخط البديع قبل أن توجد آلة الطباعة ولما وجدت تسارع المحسنون إلى طبعه فخرجت مصاحف من الآستانة ومصر بالطبع الجميل والورق الصقيل فى غاية الضبط والإتقان وحذتها الجهات الإسلامية وفى مقدمتها المغرب ومسلمة الهند وباكستان ووافتنا الأخيرة بمصاحف تسر الناظرين طبعا وضبطا وأناقة وعلى الله جزاؤهم بما عظموا من حرمة كتابه وعمموا نشره فى كل إقليم محاط بسياج من التعزيز والتكريم فى كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون مصان عن الابتذال والامتهان لايلقى بين أكداس الكتب ولا يرمى فى السلات والطرق ولايمكَّن منه كافر ولازنديق .

وطالما أشكل على وأهمنى رسم آيات فى الجرائد والنشرات المعرضة للنبذ

والتزويق ودوس الأقدام ولف الأطعمة والأفاويه وفى ذلك من الامتهان وإساءة الأدب مالايخفى وقد نص الفقهاء على حرمة ذلك وإفضاء المتعمد بذلك الفعل إلى حكم المستخف بالقرآن والدين ولله غيرة على حرماته .

٤٣ — أقسام الذكر

وهى ثلاثة :

ذكر بالقلب وذكر باللسان وذكر بهما معا وهو الأفضل .

وللناس فى المقصد بالذكر مقامان : فمقصد العامة اكتساب الأجور، ومقصد الخاصة القرب والحضور، وما بين المقامين بون بعيد فكم بين من يأخذ الأجر وهو من وراء الحجاب، وبين من يقرب حتى يكون من خواص الأحباب. وقد نوع الله الذكر أنواعا حسبما يقتضيه جلاله وجماله ويكمل به مقام العبد وحاله ويتنزه به فى حدائق المعرفة المتنوعة فى المشاهد ويتخلى عن السآمة التى تلازم الوقوف عند حد واحد .

فمنها التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد والحوقلة والحسبلة وذكر كل اسم من أسمائه تعالى والصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار ولكل ذكر خاصيته وثمرته . . . فالتسبيح وهو التقديس والتنزيه واعتقاد تعالِى الحق جل وعلا وتنزهه عن مشابهة المخلوقين ذاتا وصفاتاً وأفعالا عما يوهم نقصا فى علوه وكماله ، وثمرته صفاء التوحيد عن الشوائب وامتلاء القلب بعظمة الله وتفرده بكل كمال وله المثل الأعلى فى السموات والأرض .

والتهليل ثمرته تجديد التوحيد والإيمان الخاص ، فإن التوحيد العام حاصل لكل مؤمن والتكبير ثمرته التعظيم والإجلال لذى الجلال .

وأما الحمد والأسماء التى معناها الإحسان والرحمة كالرحيم والرحمن والكريم والغفار وما أشبهها فثمرتها ثلاث مقامات .

وهى الشكر ، وقوة الرجاء ، والمحبة ، فإن المحسن محبوب لامحالة .

وأما الحوقلة والحسبلة فثمرتها التوكل على الله والتفويض إلى الله والثقة بالله .

وأما الأسماء التى معناها العلم والاطلاع كالعليم والسميع والبصير والقريب والشهيد فثمراتها المراقبة .

وأما الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فثمرتها شدة المحبة له والقرب من جنابه والمحافظة على اتباع سنته .

وأما الاستغفار فثمرته الاستقامة على التقوى والمحافظة على شروط التوبة والتنصل من حبائل المعصية .

فإن أردت أن تفوز بكل الثمرات وتنزل أعلى الدرجات فابحث عن ورد جامع لتلك الأذكار والدعوات ولاتفقدها فى أوراد سيدى الإمام عبد الله ابن علوي الحداد ، من ورده اللطيف ، فالكبير فالراتب ، وحزبى الفتح ، والنصر له .

وراتب الحبيب الإمام عمر بن عبد الرحمن العطاس وأوراد الإمام أبى الحسن الشاذلى والإمام النووى وما فى الأذكار له والحصن الحصين للإمام ابن الجزرى والحزب الأكبر لملا على القارى وغيرها من الحزوب النافعة المنتشرة بحمد الله فى الأمة .

وأتحف مطالع رسالتى هذه بفائدة تلقيتها من بعض الأكابر فى ذكر «سبحان الله وبحمده» قال : إن استشعار معنى وبحمده يدخل الذاكر فضاء واسعاً من المعرفة يدرى به سر المضاعفة ونمو الأعمال وبركتها ، ذلك أن الضمير فى وبحمده يعود على الله جل وعلا فإذا قلت سبحان الله وبحمده عنيت أسبحه بحمده هو لنفسه وحمده لنفسه قديم بقدمه دائم بديمومته لامنتهى لعده ولاغاية لحصره

فتحمده بما حمد به نفسه لا بحمدك أنت .

وكذلك فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم تطلب من الله أن يصلى على نبيه بصلاته هو التى صلاها عليه صلاة دائمة بدوامه باقية ببقائه لا منتهى لها دون علمه فإن ثوابها لا ينتهى ولا تحصره غاية ، اهـ .

والعمدة فى الذكر والدعاء على الحضور والاستجماع واستشعار معانى ما يذكر أو يدعو به فهناك لذة الجنى وبرقة السنا .

ومن رسالة المريد لسيدى الإمام الحبيب عبد الله بن علوى الحداد قال : من سره أن يذوق شيئاً من أسرار الطريقة ويكاشف بأنوار الحقيقة فليعكف على الذكر لله بقلب حاضر وأدب وافر وإقبال صادق وتوجه خارق فما اجتمعت هذه المعانى فى شخص إلا كوشف بالملكوت الأعلى وطالعت روحه حقائق العلم الأصفى ، وشاهدت عين سره الجمال الأقدس الأسمى وله من قصيدة :

وله رمت أن تحظى بقلب منور	نقى عن الأغيار فاعكف على الذكر
وثابر عليه فى الظلام وفى الضيا	وفى كل حال باللسان وبالسر
فإنك إن لازمته بتوجُّه	بدالك نور ليس كالشمس والبدر
ولكنه نور من الله وارد	أتى ذكره فى سورة النور فاستقر

وليحذر الذاكر من الغفلة عن الدعاء ، فقد ورد فى الحديث « لا يقبل الله دعاء من قلب غافل » وكيف يذوق ما لا يتعقل أو يدرك ما لا يتأمل .

ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات لو قال لا إله إلا الله ألف مرة فقلما يشعر قلبه بمعناها وإذا فرغ القلب عن غير الله لو قالها مرة واحدة فإنه يجد من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه ، وعن الحسن البصرى : تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء : فى الصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن فإن وجدتم فالحمد لله وإلا فاعلموا

أن الباب مغلق . اهـ ، وما انغلاقه إلا من مرض أو غفلة (أم على قلوب أقفالها) .

* * *

٤٤ — ذكر العارفين

وحيث كان الذكر بتلك المنزلة العلية والرتبة السنية تمسك به الأولياء الموفقون ، وتفننوا فيه وعكفوا عليه واتخذوه إلى المحبوب طريقاً وأكثروا من اللهج به دواماً بألسنتهم وقلوبهم ، وترنموا به قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فكان الصديق رضى الله عنه يخلل كلامه بلا إله إلا الله ، وكان بلال يقول : أحدٌ أحدٌ عندما كانت قريش تعذبه تروحاً باسم مولاه الأحد .

وإنما جعل التهليل أفضل الذكر لما له من التأثير فى تطهير الباطن من الأوصاف الذميمة التى هى معبودة فى الظاهر قال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) فيفيد نفى عموم الإلهية بقوله لا إله ، وإثبات الوحدانية بقوله إلا الله ، كما سبق فى مطلب أثر التوحيد وكلمته المشرفة بهذه الرسالة .

ويعود الذكر من ظاهر اللسان إلى باطن الجنان فيتمكن فيه ويستولى على جوارحه ويجد حلاوة هذا من ذاق وأقبل على الذكر بكليته فلان جلده وقلبه كما قال تعالى : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) فأما لين القلب فهو الرقة والخشية التى تنازله من ثمرة القرب والتجلى ، وحسبك من كان الله أنيسه وجليسه .

وأما لين الجلود فهو التواجد والإهتزاز من الأنس والجلوة أو الخوف والخشية فلا حرج ولا ملام على من بلغ إلى هذا المقام أن يترنح ويترنم

فله من لاعج الحب والشوق ما يشجى ويريح ، ويثير الهيام والتباريح كما قال ناظمهم :

وإذ ذكرتكم أميل كأننى   من طيب ذكركم سقيت الراحا

ومن زاجر الخوف والخشية ما يذرف الدموع ويوجب الوجل والخشوع.

فهذه صفة المؤمنين الأبرار عند سماع كلام الله تعالى وذكره ، تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكره، تعلوهم السكينة والوقار فلم يكونوا لاهين ولا متصنعين ولا متصارخين ولا متكلفين بما ليس فيهم ولم يصفهم الله تعالى بذهاب عقولهم والغشيان عليهم والتكسير والوثب، وفى حالة نادرة قد يستولى سلطان الوجد على الذاكر فيأخذه عن نفسه وهى من حالات الهيام تسلَّم لأربابها ولا يقتدى بها ، وننقل هنا فى ذم الخروج عن الأدب حالة الذكر ما قاله الحبيب أبو بكر العيدروس من قصيدة إذ يقول :

زعم الخشوع من الجوارح تضطرب   والوجد حركات وساعات تثب
الكل يفعل مثل هذا إن طرب   فتعادل الضدان من جد أو لعب
والله لو حل الخشوع بقلبه   ظهرت سكينته وذل لربه
أجرى الدموع مخافة من ربه   ورعى من الأدب الحقيقى ما يجب
أعمالهم تقوى مع الأدب الكثير   سهل اليسير عليك واعتاص العسير
فتركته وتبعتهم فى ذا اليسير   شتان ما بين الحقيقة والكذب

ويؤيده قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك الرجل الذى كان يعبث بلحيته فى صلاته «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

* * *

٤٥ — إنشاد الشعر أثناء الذكر

ولا بأس بهزة الذكر وإنشاد الشعر وتحسين الأنغام ونشر الأعلام ، فى حضرة الذكر لأهل الوجد والأدب فإن هناك جمع شملهم وهناك يغفر لهم كما مرَّ فى الحديث : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . وإذا كانوا هم القوم لا يشقى بهم جليسهم فكيف مكانتهم هم .

وقد روى الترمذى من حديث جابر بن سمرة وصححه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يحدى له فى السفر، وأن أنجشة الحبشى كان يحدو بالنساء، والبراء ابن مالك كان يحدو بالرجال ،فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنجشة «رويدك سوقك بالقوارير» .

ولا يخفى أن النغمات الموزونة تهز القلوب الجامدة وتحرك النفوس الخامدة وأن لها أثرا فى تلطيف الأخلاق والأذواق فهى التى تحيل الجبان شجاعاً ، واللكز الشحيح جواداً ، وتخفف عن المحزون كربه ، وعن المصاب خطبه .

ولقد عرف الصوفية ما للسماع من أثر فى النفوس فاتخذوا منه وسيلة لتهذيبها والدعوة إلى الفضيلة والتذكير بالأوطان نشيداً يذكرها بمحبوبها الأول ونداءه الأجمل فى عالم الذر والإشهاد ، ومما يعبر عن ذلك ما يروى عن الإمام حجة الإسلام الغزالى . من قوله :

تركت هوى سعدى وليلى بمعزل   وصرت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه   منازل من تهوى رويدك فانزل

فلا بدع إن روقت به حفلاتها وترنمت به فى أعيادها ومواسمها وأنديتها كوسيلة للحضور وكأسُ تلك المعانى على الحاضرين تدور ، وللوسائل حكم المقاصد .

وبحسن النغم تطيب تلاوة القرآن ، وقد أمرنا بذلك قال عليه الصلاة والسلام «زينوا القرآن بأصواتكم» أي تلاوته بتحسين أصواتكم واستمع صلى الله عليه وآله وسلم إلى قراءة أبي موسى الأشعري فقال «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داوود فبلغ ذلك أبا موسى فقال يارسول الله لو علمت أنك تسمع لحبَّرته تحبيراً » ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يضع لحسان بن ثابت منبراً يقوم عليه في المسجد يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو ينافح ويقول «إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » ، وذلك بالشعر في المسجد ، فانظر أين بلغت مكانة الشاعر المنافح عن الدين والمظهر لمزايا سيد المرسلين فلم يقصر عن الخطيب الداعي المرشد في استوائهما على منبر الدعوة والمنافحة عن الدين وإرغام أعدائه، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم ينقل اللبن مع أصحابه في بناء مسجده ويقول :

هذا الحمال لاحمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر

ولعل المقصد من ذلك تنشيط الهمم للعمل المبرور والسعي المشكور بالقول الحسن والنغم الحسن شعراً ونثراً والإعانة على جهاد النفس الذي هو الجهاد الأكبر وتشويقها إلى السياق والتنافس في ذلك المضمار ، لمثل هذا فليعمل العاملون .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعقد الألوية لبعض أصحابه ، ويجيز إنشاد الشعر بين الصفين والتبختر في المشية ويقول «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع » أي موضع الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

ولا يبعد أن يكون الاجتماع بالأدب والتواضع على الذكر بشعار أهل الطريقة والدعوة إليه وتبادل كئوس الحب في الله والاجتماع عليه ـ من أسباب إعلاء كلمة الله ونشرها في المدن والبوادي على حد ما قيل :

فنادِ مني بمثل لسان حالي   تروحني وأطرب من قريب

* * *

٤٦ ـ المقصود من الطريقة ومنهج أهلها

وذلك لأن المقصود الأصلي من الطريقة مجاهدة النفس وتزكيتها بالأخلاق المرضية ، وإلزامها بالشريعة المحمدية في الباطن والظاهر على نهج السلف الصالح ، وذلك هو التصوف المقتبس من قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ والنفوس بمقتضى رعونتها وغلوائها لاتخضع إلا لسلطان قاهر أو برهان ظاهر أو حكيم ماهر وقد اختفى سلطان الحق والهدى منذ أزمان حينما افترق السلطان والقرآن كما أخبر به الصادق المصدوق وخلفت دولة الأثرة والاستبداد فاطرحت الدين جانباً وذهبت وراء أغراضها وتمكين نفوذها وجبروتها وغشت البصائرُ عن استجلاء البراهين الشرعية لما غلب عليها من الأهواء والحظوظ النفسية ،وتطاول الأمد وبعد العهد عن قرون الهدى والخير فقيض الله لحفظ دينه من كل جيل طائفة لاتزال قائمة على الحق لايضرها من ناوأها حتى يأتي أمر الله .

وليست هي إلا الطائفة المحتفظة بكتابها وسنتها ومنهاج سلفها ، أخذت نحو دعوة الكتاب والسنة فاستقلت بهما وعملت بأحكامهما ودعت النفوس الجامحة إليهما بأساليب اللطف والحكمة والتقريب والاستمالة بما تصبو إليه النفوس من متعها المباحة ودواعي سرورها وانشراحها كالسماع والحضرات ومحافل الذكر الصالحات، وسائر الأحوال التي من شأنها أن تعين على تهذيب النفوس وتمرينها على الأخلاق السامية والعوائد الحسنة .

وعلى هذا النهج درج أدلاء الطريق وأعيان من دعاة الأمة المحمدية وتغلغلوا في الأصقاع النائية عن شعائر الإســـلام والمجاهل التي

يقل وصول الدعاة إليها إلا من بذل نفسه لله وتجشم المشاق فى بلوغ تلك الغاية التى يتهيبها المترفون مبلغاً عن نبيه الذى قال «بلغوا عنى ولو آية» منضوياً فى غمار تلك الطائفة المرضية من خيار الأمة المحمدية :

أولئك أبدال النبيين أبرزوا ... لفضل رسول الله فى خير ملة

فعلى ذلك النهج السديد كان إرشادهم، وتربيتهم لتلاميذهم، والمنتمين إليهم .

٤٧ — فضل الشيخ المربى وصفته

ومن هذه الحيثية تبدو مزية الأخذ عن المشائخ وأن من لا شيخ له يرشده كالتائه فى الطريق ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : «خذوا عنى مناسككم» وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

قال بعض العارفين: وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع، ويكشف عن قلبه القناع فهو فى هذا الشرع لقيط لا أب له دعى لا نسب له كيف وسبيل السلوك والتزكى غامض ، وسبل الشيطان كثيرة.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما. وخط عن يمينه وشماله خطوطا ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان لا محالة إلى طريقه ،ومن سلك البوادى المهلكة بنفسه من غير دليل خاطر بنفسه وأهلكها ،والمستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر — ولله در من قال :

يظن المرء أن الكتب تجدى ... أخا فهم لإدراك العلوم

وما يدرى الجهول بأن فيها ... غوامض حيرت عقل الفهيم

إذا رمت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم

وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصير أضل من توما الحكيم

وفى القرآن ما يشير إلى ذلك قال تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أى ندعو كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء وورثتهم من العلماء وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم من الضلال كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) .

وفى الصحيحين «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» اهـ وفاز من كان متبوعه الرسول الأعظم وحزبه الكرام أئمة الهدى رجال الله وخلفاءه فى أرضه من عباده الذين قال فى وصفهم الإمام على كرم الله وجهه أولئك هم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً بهم يدفع الله عن خلقه ، حججه فى أرضه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى فى بلاده هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم .

فهؤلاء هم الحكماء الماهرون أيدهم الله بروح منه فداووا بالحكمة أمراض القلوب، وصبوا الإرشاد فى قوالب من المباح المرغوب ليوصلوا العامة من طريق هواهم إلى الحق المطلوب، فإذا هم فى حزب الله من حيث لا يظنون ومن أحب قوماً فهو منهم فلاجرم كان الدين محفوظاً بهذه الطائفة المعينة وبمن انتمى إليها واحتذى بها فى نشر أعلام الدعوة وإعلاء كلمة الحق فى أكناف البلاد على ما فى الوقت من تنكر وفساد وفجور وإلحاد فشا فى كل قطر وناد ، وسكوت وإعراض من أولى العلم وولاة الحكم يفتت الأكباد ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولعلك تصبو إلى تعرف وصف الشيخ المطلوب الأخذ عنه ، المنوه بذكره آنفا فهو فى اللغة الهرم والذى استبان فيه الشيب،وفى العرف العام العاقل المحنك ومنه شيخ البلد وشيخ القبيلة ، وفى العرف الخاص هو الراسخ فى علوم الشرع الثلاثة :

الإيمان الذى هو مادة علم التوحيد وأصول الدين .

والإسلام الذى هو مادة علم الفقه والشريعة .

والإحسان الذى هو مادة علم الحقيقة وهو المطلوب فى السلوك والطريقة .

ويمتاز شيخ التربية والتخريج ببلوغه الحد الذى من بلغه كان عالماً مربيًّا ربانياً مهذباً مرشداً إلى طريق الحق ولو كان شاباً فهو طبيب الأرواح الشافى بما علمه الله من أدوية أدواءها المردية .

وفى اصطلاح المحدثين من أحاط علما بمائة ألف حديث متناً وإسناداً ،ومن تعاريفهم للشيخ هو من علمك بقاله وأنهضك بحاله ، من أفاد الطالب ، وفتح المطالب ، الكامل فى ذاته المكمل لغيره ، وإنما يؤخذ كل فن عن أربابه فلا يعتمد صوفى فى الفقه إلا أن يعرف إتقانه له وقيامه عليه ولا فقيه فى التصوف إلا أن يعرف بحقيقته به وقيامه عليه ولا محدث فيهما إلا أن يعرف قيامه بهما، ومن تكلم فى غير فنه أتى بالعجائب .

وإن ننح باللائمة يوماً على كثير من العلماء والأعيان ومن يليهم من طلاب العلم على سكوتهم العميق وإعراضهم الفاحش عن نشر الدعوة العامة وتبليغها إلى أنحاء المعمورة لكل من يمكن تبليغها إليه بسائر الوسائل الممكنة كما هو مطوّق بأعناقهم ومحتم عليهم ومأخوذ عليهم به العهد والميثاق ـ فلا ينبغى لنا أن نلوم ونثرّب من ينتدب للدعوة من المنتمين إلى أحد المشائخ الدعاة أولى الطرائق السديدة والخلائق المحمودة ويجمع العامة على ما يقربهم إلى الله ورسوله وصالحى

عباده وينقلهم من غيابات غيبتهم العميقة ومهاوى دنياهم السحيقة إلى منجاة من أمنة الذكر وحصنه الحصين المشار إليه «بحديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه» .

ولا ينبغى أن ننبزه بالبدعة والخرافة وكيف نرميه بهذا وهو يدعو الغافلين إلى ذكر الله تعالى والرجوع إليه تحت لواء الألفة الدينية والأخوة الإيمانية على بساط الود والمحبة فى الله بل الحق أن نقلده وسام الشكر على ما قام به أولا من أعباء الدعوة الإسلامية وما كفانا ثانياً من تبعة الحرج والمسئولية ، ثم متى رأينا فى سلوكه اعوجاجاً أو خروجاً عن الجادة نرشده بلطف وبصيرة إلى ما تطلبه منه وظيفة الدعوة والذكر من سلوك وآداب ونقول له قولا معروفاً فإنه مهما نال من علو الجاه خاضع تحت نير الشريعة والآداب النبوية .

وليت شعرى لو راعى مشائخ الطريق اليوم آداب الذكر والطريق وأخذوا بها أتباعهم وجمعوا على تنوعها أوزاعهم لكانت لهم عوناً على السلوك والوصول إلى حضرة ملك الملوك عطية باردة بلا إراقة دماء ولا خشية سلطان ولا خوض معارك ولكنهم لا أقول كلهم ولكن غير المهذبين منهم ويا للأسف ! اقتصروا على الرسوم والأوضاع الظاهرية وشوهوا معالم الطريقة السنية فامكنوا لصوص الانتقاد وسوس الاعتقاد من الحط من مقامهم العالى وفتحوا لهم ثغرة بما صاروا إليه من تفرق وتحزب لا يجمعهم على الغرض المقصود وغلو فى الاعتقاد وتعداد لمفاخر لا مساس له بالمطلب المقصود ، فعلى أنفسهم جنوا وإلى ذمهم دعوا والطريقة بريئة من تلك النسبتين :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

* * *

٤٨ – وجوب النصيحة لكل مسلم

فإلى مشائخ الطرائق أوجه كلمة النصح فى توجيه أتباعهم إلى منهج الرشد، والتأليف بين الأتباع من كل طريقة، وتوحيد مرماهم لإعلاء كلمة الحق وإملاء مناشير الذكر بين الخلق!

ولنا بحمد الله فى وازع الائتمار وترياق النصيحة مايابين الشديد ويقرب البعيد ويأسو الجراح، وعلى ذلك يدور الشأن وتقوم الأركان.

عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه، قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم رواه «الشيخان».

وقال عليه الصلاة والسلام «الدين النصيحة يكررها ثلاثاً قلنا لمن يارسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»، وذلك منهج الأنبياء وديدنهم قال تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام «وأنصح لكم» وعن هود «وأنا لكم ناصح أمين» وقال تعالى لخير أنبيائه (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى).

ومن المعلوم أن بذل النصح واجب وقبوله واجب ومن أهم حقوق لا إله إلا الله. فلا مناص لمسلم عنهما ولا يعذر فى السكوت متى رأى منكراً بل عليه أن يغيره ويدفعه بإحدى المراتب الثلاث الواردة فى حديث من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.

فالمرتبة الأولى وهى التغيير باليد لايستطيعها غالباً إلا أرباب الولايات والمناصب والمأذون له من قبل السلطان من القضاة والمحتسبين ومن بذل نفسه لله.

والثانية وهى التغيير باللسان أى القول متيسرة لعامة المسلمين لكنها على العلماء آكد وأوجب لاطلاعهم على أحكام الله تعالى ومعرفتهم بوجوه الكلام وكيفية الردع والزجر بالمواعظ والحكم ويتأتى لهم ذلك على وجه العموم فى المحافل والدروس والخطب وفى الحديث «ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس» ولا يقصر عن هذه الرتبة إلا جاهل متخبط أو عالم مفرط.

والثالثة وهى التغيير والإنكار بالقلب بأن يكرهه بالقلب ولا يرضى به ويبتهل إلى الله فى إزالته، وظيفة العاجز عن التغيير باليد، واللسان لأن الراضى بالذنب شريك فيه وإن كان بالشرق وفاعله بالغرب، ومن يخشى حدوث فتنة أو شدة أذى أو تمادى إصرار على ذلك المنكر إذا أعان بإنكاره كما هو مقرر فى كتب العلماء.

* * *

ولعمرى إن زماننا هذا هو الزمان الذى لجأ كثير من العلماء فيه إلى السكوت والمواربة فلا إنكار ولا غيرة، تعللوا بما لا يقوم به عذر ولا تبرأ لهم به ذمة فما بالهم يهبون لما فيه حظ النفوس وحظ الفلوس، فهلا كان ذلك فى نصرة الدين وحفظ شريعة سيد المرسلين ولله در الشيخ الفقيه الأديب أحمد بن عمر باذيب الحضرمى حيث يقول من قصيدة:

فيا أولى العلم لا نلتم فوائده ... إن لم يكن علمكم لله مبذولا
إلى متى ذا التوانى عن مظاهرة ... تحل كربة هذا الدين تحليلا
قوموا لنصرته جداً فنصرته ... بكم ومنكم فلا تأتوا التعاليلا

وإن قاصمة الظهر التى لا يسعها بساط العذر هى إغضاء كثير من أولى الفضل عما هو واقع فى بيوتهم وأسرهم من المساوى والتملص من آداب الإسلام الرفيعة

وأسواره المنيعة جرياً مع التيار العصرى فكان سكوتهم عن ذلك أسوأ مثل، وسلاحاً لمن خالف أوزل (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

* * *

٤٩ – فتنة الملاحدة

بل وقع فى الشباك ما هو أدهى وأمر وهو انصياع جماعة من المتسمين بالإسلام لآراء الملاحدة واستحسانهم لها واطراحهم الدين جملة واحدة بزعم أن أحكامه قد تداعى اعتبارها وانتسخت أخبارها وأصبحت لا تتفق مع مدنية العصر ولا حاجة لكتبه العتيقة الصفراء .

هكذا سمعنا وهكذا قرأنا فى مقالاتهم ببعض الصحف : فبأى معنى نفسر كلامهم ؟ لاشك أنهم قد مرقوا به عن الاسلام وألحدوا به فى دين الله وسلكوا غير سبيل المؤمنين من الكفار والملحدين وآثروا الأهواء النفسية والنحل الإلحادية والشهوات الدنيوية واستحلوا المنازع الإباحية وداجوا دعاتها المارقين ، ولن ينفعهم ما يتسمون به من الإسلام لارتدادهم عنه بما زعموه ، ولن يغنى عنهم أولئك الدعاة الملحدون الذين اقتدوا بهم من عذاب الله من شىء وسيسحبون فى النار على وجوههم ويقال لهم ذوقوا مس سقر : قال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) وقال تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم إنكم فى العذاب مشتركون) .

والآية الأولى وإن نزلت فى كفار أهل الكتاب على ما قاله قتاده أو فى المنافقين على ما قاله الضحاك عن ابن عباس، إلا أنها تسحب ذيلها على كل من ارتد عن الاسلام فى أى زمن وحال ومنهم هؤلاء المؤتمون بالملحدين.

ولو أن هؤلاء قالوا للملحدين الذين أغروهم وخوفوهم وحيوا إليهم الكفر والفسوق وزينوهما لهم بمختلف وسائل الفتنة والإغراء ، ما قال السلف الصالح من المؤمنين لمن فعلوا معهم مثل ذلك فيما حكى الله عنهم .

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله) لاستوثقوا بعروة لا تنفصم وقوة لا تنهزم ، وتأمل قوله فزادهم إيماناً كيف زادهم تجمع الأعداء وتخويف المرجفين بسالة وثباتاً وقوة لا تقف عند حد واندفاعاً فى نصرة الدين إيماناً بما وعدهم الله من النصر إذ يقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

من كل منتدب لله محتسب   يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم   من بعد غربتها موصولة الرحم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم   ماذا رأى منهم فى كل مصطدم
تهدى إليك رياح النصر نشرهم   فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى

وقالوا تعبيراً عما امتلأت به جوانحهم من تعزز بالله واعتصام به واطمئنان إلى وعده (حسبنا الله) كافينا بحسن رعايته وتدبيره (ونعم الوكيل) لمن توكل عليه واستند إليه فكافأهم على ذلك أن تولى أمرهم وأيدهم بنصره وكفاهم شر الأعداء (فانقلبوا بنعمة من الله) تخفق عليهم راية النصر والكرامة (وفضل) مما أنالهم من فتح وأفاء عليهم من أنفال كما قال فى الآية الثانية (وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) .

وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الأطم

٥٠ ـ الجهاد فى سبيل الله وتمنى الشهادة

وهنا مال بنا الاستطراد إلى ذكر الجهاد الذى هو الأول من أصول الدين وذروة سنامه وبه أعز الله الإسلام والمسلمين وأذل الشرك والمشركين ، وهو أعلى أقسام الأمر بالمعروف بل رأسه الذى هو التوحيد والإسلام ، والنهى عن أفحش المنكرات والآثام الذى هو الكفر والإشراك بالله ، وحكمه الوجوب على الكفاية بالنفس والمال ويجب عندما يدهم العدو أرض المسلمين على كل من يطيق الدفاع وعلى من يعينه الإمام .

وأول الجهاد الدعوة إلى الله والإسلام ثم القتال لمن تولى وكفر . فينبغى لكل مسلم أن ينوى الجهاد ويحدث به نفسه حتى يسلم من الوعيد الوارد فى ترك ذلك قال عليه الصلاة والسلام « من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

* * *

وينبغى الإكثار من سؤال الشهادة قال عليه الصلاة والسلام « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » .

* * *

وفى الخبر : أن الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة ، وورد أيضاً : يضمن الله لمن خرج فى سبيلى لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه بما ينال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده ما منكم من أحد يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون الدم

وريحه ريح المسك والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل » .

هكذا يود ويتمنى سيد الخلق أن يغزو ويقتل ويحوز الشهادة وهى دون مرتبة النبوة والرسالة ، فيالك من مزية يودها سيد الأنبياء فلا نامت أعين الجبناء .

* * *

وإنما يطلب مجاهدة الكافرين والمنافقين قال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين) ، وقال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

أما غزو المسلمين وقتالهم بعضهم لبعض على الرياسة والملك وحظوظ الدنيا والعصبية والحمية والقومية والتقدمية والبعثية والرجعية والطائفية والإشتراكية فهو من أكبر الكبائر وأعظم الجرائم ، ومن أمور الجاهلية ولا جاهلية القرن العشرين قال تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه) .

وقال عليه الصلاة والسلام فى خطبة حجة الوداع « إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، انظروا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقال عليه الصلاة والسلام « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ولو أن أهل السموات وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله النار » .

وقال عليه الصلاة والسلام من « أعان على قتل مسلم بشطر كلمة لقى الله مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله إلى غير ذلك من التهديدات الوارده فى هذا الباب . فما عذر من يستبيح فى إخوانه المسلمين هذا القتل (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

فلو أنه صرف هذه القوة فى جهاد الكافرين ومغتصبى فلسطين ومن على شاكلتهم من أعداء الدين الواقفين لنا بالمرصاد والمتألبين علينا من كل واد لجنى من ذلك ثمرة النصر والأجر والفوز المبين ولكنها مظاهر الشقاوة والضلال تقود أربابها إلى مهاوى السخط والوبال وسبة التاريخ والأجيال (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) .

ولقد صدق أخى العلامة طاهر بن علوى الحداد حيث قال من قصيدة :

أترجو أمة خيرا ومنها ... على أبنائها سل الحسام

إذا غضبت لعزتها نفوس ... أعد لقتلها الموت الزؤام

وقالوا مسلمون وهم دواما ... على الإسلام حرب لاسلام

فمن استطاع الجهاد وتمكن منه فليجاهد وليبادر ويشمر ولا يتكاسل ولا يقصر ، ومن لم يستطع ولم يتمكن فعليه بحسن النية فى الجهاد وكثرة الدعاء للمجاهدين وإعانتهم بما يقدر عليه فقد ورد « من جهز غازيا فقد غزا ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا ومن أنفق على الغازى ولم يغز فله بكل درهم سبعمائة درهم » .

وأحسب أن من هذا الباب تلك التبرعات والإسعافات التى تجمع لإرفاد

المجاهدين الذائدين عن حوزة الإسلام وحمى أوطانه المقدسة كما هو دائر الآن فى فلسطين ، والإنفاق على أهاليهم وذويهم المشردين فحيا الله المحسنين .

وقد أسلفنا فى مبحث المجاهدة بهذه الرسالة أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر فهو من أقسام الجهاد التى لامهادنة فيها ما دامت للمرء نفس أمارة بالسوء كما قال سيدنا يوسف الصديق عليه السلام (وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء) وقال نبينا صلى الله عليه وآله وسلم « المجاهد من جاهد هواه ، والمهاجر من هجر ما نهاه الله عنه » ، وذلك لأن جهاد المعركة له أوقات محصورة ، وينتهى ولا كذلك جهاد النفس وكذلك الهجرة فى زمنه صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ، فالمجاهد حقا ما تحمل مشقة الأهوال وكفاح الأبطال وفراق الأهل والعيال والمال إلا بعد أن انتصر على هواه وذلل نفسه لمرضاة الله .

والمهاجر حقا ما تحمل مرارة الغربة واستعذبها إلا بعد أن آثر صحبة رسوله على المقام بوطنه بين عشيرته وأهله بجاذب التوفيق ، والإستجابة لدعوة الحق وصحبة خير فريق .

* * *

ومن المعلوم أنه لابد لجهاد النفس وتذليلها فى طريق الحق من أهبة وعدة وأعوان حتى تصل إلى مقام التوحيد وكمال الأنس بقرب الواحد المجيد وبدونها لايحرز الظفر فالأهبة والعدة هما جهاز العلم النافع والعمل الصالح المؤديين إلى برد اليقين وحقيقة الايمان ، والأعوان هم الأدلاء على الطريق والمرشدون إلى معالمها الذين يبلغون رسالات الله ــ الآخذون بأيدى بعضهم بعضا فى سلوك تلك المهامه وارتقاء تلك المعالى ، مصابيح السالكين وهداة الحائرين وأعلام الطريق

وعيون التحقيق كما قال فى نعتهم سيدى وشيخى الجهبذعلوى بن طاهر الحداد
قدس الله سره ـ سار بهم الواقف وتقدم بهم الخالف وارتدع بحججهم المخالف
واهتدى بنورهم الحائروأقبل برؤية جدهم المعرض الفاتر، وكمل بتربيتهم المتخلف
الناقص،وتقدم إلى حلبة السباق الكسول الناكص، تضاعفت أنوارهم بأعمالهم
وتزكت أحوالهم باقبالهم ، أنابوا إليه فهداهم واجتباهم واستجابوا له ووالوه
فقربهم ووالاهم،قربهم بامتثالهم ونورهم بأعمالهم وأحبهم وحببهم لاقبالهم (إن
الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) كاشفهم بأنوار الكشف
العالى وزين قلوبهم بنور منه متلالى فكشفوا به عن عيوب النفوس وآفات
الأعمال وعن المواجيدومنازل السير ومنازلات الواردات والأحوال وأبصروا
به من معانى الأسماء والصفات وأنوارها وآثارها وحقائق المعرفة مالا يبلغه
التعريف ولاتعرب عنه الصفة ولا يستوفيه التوصيف (ويزيد الله الذين اهتدوا
هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا) أحياهم فى هذه
الدارحياتين حياة المعرفة والسرور والأنس بالله وقرة العين وآتاهم من الرحمة
كفلين وكتب فى قلوبهم الايمان وآتاهم العلم ونور الفرقان وصلى عليهم
وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور وأيدهم بروح منه فكانوا فى
الحزب المفلح المنصور قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم
فرقانا) ، (واتقوا الله ويعلمكم الله) (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلناله نورا
يمشى به فى الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم
كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) (أولئك كتب فى قلوبهم
الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهارخالدين فيها
رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون
(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى
بالله عليما) .

نسأله تعالى وهو أكرم مسئول،أن يجعلنا من الذين أنعم عليهم ونظر
بعين الرحمة إليهم وبلغهم كل مرام وختم لهم بحسن الختام .

تمت الرسالة بخير والحمد لله

مطبعة المدني